١٠٩٤ 1094

عبير

HARLEQUIN

دار م. النحاس

لأجل براين

جود راندال

www.elromancia.com

مرمورية

لأجل بريان

جود راندال

هربت بريتاني هدسون من كالغاري منذ سبع سنوات، تاركة لوك ماك كول، وحاملة سراً كان سيبقى معها مدى الحياة. وها هي ذي تعود الآن وهي بحاجة ماسة إلى العثور عليه، ذلك ان حياة ابنهما متوقفة على ذلك.

وكانت صدمة لوك ماك كول بالغة بالغة وهو يرى بريتاني مرة أخرى ويسمع منها خبر ابنهما... الإبن الذي لم يعلم أبداً بوجوده، وإنه هو لوك، الشخص الوحيد الذي يمكنه إنقاذه.

كان لوك مستعداً لهدم الجبال لإنقاذ ابنه، ولكنه كان يعلم انه بحاجة إلى أكثر من ذلك ليعيد ثقته في بريتاني مرة أخرى.

سوريا: ٦٠ ل.س – [illegible] ٥٠٠ [illegible] البحرين: ١ دينار – قطر: ١٠ دراهم – السعودية: ١٠ ريالات – الامارات [illegible] درهم – الاردن: ١,٥ دينار – المغرب: ٨ درهم مغربي. – سلطنة عمان ١ ريال. – تونس: ٢ دينار

«اخبريني لماذا قطعت كل تلك الرحلة لكي تريني؟»

«لقد جئت إلى هنا يا لوك لأنني بحاجة إلى عونك كما لم احتج لشيء في حياتي من قبل.»

انتظر منها ان تستمر، وعندما لم تفعل هز كتفيه وقال: «لك ذلك، فما هي المشكلة؟»

قالت بهدوء: «ان ابننا مصاب بسرطان الدم، وانا بحاجة اليك لكي تفحص دمك لأجل نقل مخ العظم منك اليه.»

جمدت انفاس بريتاني وهي تنتظر جوابه، ولم يكن الذهول ليبدو عليه بهذا الشكل لو انه كان تلقى صفعة على وجهه.

قال لها وقد بهت لونه: «قوليها مرة أخرى، (إبننا؟)»

جود راندال

هي مندوبة شركة سفريات سابقة جعلها عشقها للتجوال تقوم باكثر من عشرين رحلة على مدى ست سنوات، وتشربت نفسها تدريجياً من احداث تلك الأسفار حباً للشاعرية والنهايات السعيدة، استحالت فيما بعد إلى روايات عاطفية وقد ولدت جود لأبوين بريطانيين وهي تعيش الآن في كالغاري.

عبير ١٠٩٤

Abir 1094

لأجل برايان

جود راندال

دار
مؤسسة النحاس
للطبع و النشر و التوزيع

www.elromancia.com

تمهيد

حاولت بريتاني هدسون أن توقف الطنين الذي تشعر به في اذنيها، مرغمة نفسها على التمسك بالهدوء وهي تسأل الرجل الجالس امامها: «هل انت واثق، يا دكتور؟»

فنظر في عينيها مباشرة، ثم أومأ مجيباً: «يا ليتني استطيع ادخال الاطمئنان إلى نفسك.»

أشاحت بريتاني بوجهها عنه بعنف وكأنها بعدم مواجهتها لاختصاصي مرض السرطان، تعبر بشكل ما عن رفضها لنتيجة الفحوصات، ثم سألته وقد تهدج صوتها رغم محاولتها البقاء هادئة: «كم سيعيش؟» ورأت من ارتجاف يديها انها على وشك ان تفقد سيطرتها على اعصابها، فجذبت نفساً عميقاً وقد تقبضت يداها حتى غرزت اظفارها في راحتيها.

فكرت وهي تشعر بالدوران، ان هذا كثير... وانها لن تستطيع سماع اكثر من ذلك، وجذبت نفساً آخر عميقاً، متمنية لو ان لديها، ولو هذه المرة فقط، شخصاً قوياً تستند اليه، شخصاً تتشبث به اثناء الليالي السوداء والأيام الأكثر سواداً.

تفحص الطبيب التقرير الموضوع امامه، ثم هز كتفيه مفكراً: «سنة... عدة سنوات... لا يستطيع احد ان يتنبأ بمبلغ تقدم المرض، لقد سبق وعلمت ببطئه ولكن...»

خنقتها غصة، وقاومت شعوراً لا يكاد يحتمل يدفعها إلى

الهرب من جو العيادة الخانق هذا... الهرب بأسرع ما يمكنها بعيداً عن هذا الكابوس، ولكن ما فائدة الهرب؟ انه لم يفدها بشيء منذ سبع سنوات، وهو لن يغير الأمور الآن.

فاتكأ الدكتور لويس إلى الخلف: «والده.»

احست بريتاني بالدوار، لم تستطع ان تتناول فطورها ذلك الصباح، ولكن معدتها مازالت تتلوى، كان هذا هو جوابه الذي كانت تتوقعه منذ البداية، ولكن هذا لم يخفف من صعوبة قبولها له، فقد كان من حماقتها ان كانت ترجو ان لا يكون من الضروري...

قاطع الدكتور لويس افكارها: «بريتاني... ان التبرع بالدم هو الخيار الوحيد امامك، ولكن والديك متوفيان، كما انك وحيدتهما، وهكذا يكون والده هو الخيار الثاني الطبيعي لذلك... لا تنسي اننا نتحدث هنا عن مرض مستعص.»

وصفعتها كلماته، تذكرها بأن الوقت قد حان لمواجهة المشكلة مباشرة بدلاً من انتظار معجزة لم تحدث.

بللت شفتيها الجافتين بلسانها وقالت: «فهمت، سأفعل ما استطيعه.»

أقفل الطبيب الملف الذي امامه وهو يقول: «انك لم تحدثيني عن ظروفك، يا بريتاني، انني اعلم جيداً ان هذا ليس من شأني ولكن إذا كان ثمة ما اساعدك به، بنفسي...»

فقالت بحدة: «كلا.»

كل شيء ما عدا هذا. فإذا كان عليهم الاتصال بلوك، فهي التي ستقوم بذلك، ومنحت الطبيب ابتسامة واهنة وهي تقول: «شكراً، ولكنني ساهتم بذلك بنفسي.»

وكانت تفكر، لا ادري كيف... ولكنني سأقوم بذلك، تماماً كما قمت بكل شيء خلال السبع سنوات الماضية.

ووقفت على ساقيها المهتزتين ثم وضعت حقيبة يدها في كتفها، بينما قال الدكتور وهو ينهض: «آسف لعدم كياستي، فانا لم اقصد ان اكون عديم الاحساس، ولكنني اظنك تدركين أي حالة بين ايدينا هنا.»

فأومأت هامسة: «نعم، وانا شاكرة لك اهتمامك وسأكون على اتصال بك.»

فابتسم وفتح لها الباب وهو يحاول التسرية عنها بكلمات لم تكد هي تسمعها، اجتازت غرفة الانتظار خارجة من العيادة إلى حيث المصعد في الردهة، وذلك بعينين لا ترايان.

ضغطت على الزر السفلي، ثم اتكأت بوهن على الجدار وهي تشهق باكية.. لماذا؟ لماذا لا يحدث هذا لشخص آخر؟ ألم يكن لديها طوال حياتها، من المتاعب ما يكفيها لكي يحدث لها هذا؟

بدد افكار بريتاني وصول المصعد فدخلت اليه، وكان فارغاً، واستدارت تنظر إلى صورتها في المرآة، لقد كانت ارتدت طقمها المفضل الليموني اللون وذلك من باب التفاؤل، كما رفعت شعرها القاتم الكث فوق رأسها، آملة بأن يشكل هذا اليوم احتفالاً يحقق الأحلام وابتداء حياة مليئة بالسعادة والبهجة بدلاً من المخاوف المستمرة.

استندت إلى جدار المصعد وقد ابتدأ الصداع في رأسها.

عيادات الأطباء توتر الأعصاب وتزيد الصداع كل هذا اصبح جزءاً من حياتها اليومية، ولكن لم يحدث لها قط ان

تمنت، حتي في احلك الأيام، لو ان شخصاً آخر تحمل هذا العذاب بدلاً منها، كما فعلت منذ لحظة.

اشمأزت من افكارها الكريهة هذه، ولكنها كانت خائفة... كان الخوف يتملكها، وبشكل لم تعرفه من قبل، من ان يختطف الموت روحاً هي أعز لديها من روحها، وتدفقت الدموع من عينيها، لا يهمها ان تموت هي، اماان يموت ولدها الوحيد، فهذا ما لا تستطيع احتماله.

الفصل الأول

إذا كان ثمة ما يكرهه لوك ماك كول، فهو أن يعود في المساء، وذلك بعد يوم مرهق مع عملائه، ليجد موعداً لا علم له به مع شخص عليه أن يقابله.

سأل سكرتيرته: «هل أعطتك اسمها؟»

فأجابت: «كلا. لقد قالت إن اسمها لا أهمية له، بل المهم هو أن تراك. إنها تنتظرك منذ أكثر من ساعة في قاعة الاجتماعات.»

فقطب لوك جبينه، محاولاً أن يتكهن بمن تكون. فقال: «هل سبق لك رؤيتها؟»

«كلا.»

فنظر إلى باب غرفة الاجتماعات المقفل، متأوهاً. قد تكون المرأة مندوبة جمعية خيرية متحمسة تطلب الاحسان. وقد لا يستغرق إدلاؤها بمطلبها أكثر من دقائق معدودات ربما يكتب لها الشيك ثم يشيعها إلى الباب.

قالت له كارول السكرتيرة: «الأفضل أن تذهب إليها قبل أن تشيخ هي في السن. لأنني سأخرج الآن حالما أنهي فض هذه المغلفات.»

تنهد لوك مستسلماً، ثم قال لسكرتيرته ضاحكاً: «الأفضل أن تبقي. فقد لا أتمكن من التخلص منها.»

فضحكت كارول بمرح وهي تتناول حقيبة يدها، قائلة: «يا لها من مزحة. أن تحتاج إلى المساعدة بالنسبة إلى السيدات، فهذا ما لا يلزمك. وأنت تعرف ذلك.»

www.elromancia.com

فهز لوك كتفيه ببراءة ضحكت لها كارول قبل أن تغادر الغرفة، بعد أن انتهى عملها لهذا النهار، وهي تلوّح له بيدها.

وابتسم. كان يعلم أن الناس يرونه شاباً اعزب خالي البال مع مركزه الاجتماعي المرموق هذا، وسيارته الجديدة الفارهة ولكن من يعرفه جيداً يعلم أن اهتمامه مركز على أعماله أكثر منه على العبث واللهو. فحياته هي عبارة عن سلسلة من المقابلات العفوية مع اصدقائه، وأمسيات يمضيها دون رسميات متكلفة حيث يرتدي بنطلون جينز وقميصاً قطنياً غير مهتم بأحد، ما عدا نفسه.

وإذ سار نحو مكتبه وهو يفكر في دعوة تلقاها لحضور ذكرى مولد، وعما إذا عليه أن يذهب أم لا، صافحت نظره أكوام الأوراق غير المنتهية على مكتبه، وعند ذلك تذكر ذلك الموعد الذي ينتظره في غرفة الاجتماعات، فعاد يخرج من المكتب شاعراً بالضيق وهو يتأمل الباب. رفع يده يدعك رقبته وهو يجاهد في طرد العبوس من ملامحه، محدثاً نفسه بأنه أجهد نفسه في العمل.

أدار مقبض الباب الفضي، متشوقاً إلى الانتهاء من هذه المقابلة بأسرع وقت ممكن. فقد كان ذهنه ما يزال مستغرقاً في التفكير في أعماله. دخل الغرفة حيث كانت مائدة المؤتمرات إلى يمينه بينما قامت إلى اليسار أريكتان مع الجدار تحت صورة تمثل مدينة كالغاري.

مضت لحظة أخذ لوك يتساءل أثناءها عما إذا كانت المرأة قد خرجت. ثم ما لبث نظره أن وقع على قوام امرأة تقف عند النافذة البعيدة. عدل من ربطة عنقه وزرر سترته.

كانت تقف وظهرها إليه وهي تتفرج على منظر المدينة من الطابق الأربعين، ومع أنها لا بد قد سمعته يدخل الغرفة، إلا أنها لم تلتفت إليه.

ومن بعيد، رآها امرأة معتدلة الطول ذات شعر بني قاتم، وترتدي طقماً ذا لون شاحب الزرقة يبرز خصرها النحيف ووركيها الملتفين كان في وقفتها تلك، وفي استقامة قامتها وتوازن كتفيها، كان في كل ذلك شيء بدا له مألوفاً للغاية.

«آسف لجعلك تنتظرين يا...»

فتصلب ظهر المرأة لدى سماعها صوته، ولكنها بقيت جامدة. قطب حاجبيه وقد صافحت أحاسيسه رائحة عطر مألوفة. ابتعدت به إلى زمن مضى. وعندما لم يتذكر تماماً، بقي واقفاً ينتظر، بينما تنفست هي بعمق، ثم اعتدلت في وقفتها قبل أن تستدير إليه.

تقدم إلى الأمام ماداً يده ليصافحها وهو يقول: «أشكرك لانتظارك لي. لقد كنت...»

وتقابلت عيناه بعينين زرقاوين عميقتين مألوفتين فسكت عن الكلام. وبينما كانت عيناه تحدقان في هذه المرأة التي كانت ذات يوم جزءاً من وجوده، كان عقله يستغرب أن تكون هي نفسها هذه التي تقف أمامه بعد كل تلك السنوات.

قالت بهدوء: «مرحباً يا لوك. إنني مسرورة برؤيتك.»

نظر إليها لوك صامتاً، وهي تتقدم نحوه وقد ملأه صوتها الخافت بنفس الدفء المعتاد، مبرهناً على أنها ليست سراباً بل من لحم ودم.

أجابها: «بريتاني.» ورغم أن هذا الاسم كان مألوفاً لديه، إلا أنه بدا غريباً بين شفتيه.

فارتسمت على شفتيها ابتسامة رقيقة متفهمة، ثم تقدمت تقف أمامه، فذكره شذا عطرها بليال مضت. وبقيت نظراتها ثابتة لا تهتز. لم تكن بريتاني التي عرفها تقابل نظراته بل كانت تحني رأسها مختبئة خلف شعرها الذي كان ينسدل إلى خصرها.

ولكن رأسها الآن مرفوع، وشعرها يتكوم فوق رأسها برقة وملامحها تنطق بالجمال الحقيقي. لقد أعجبه أن جمالها الفتيّ البريّ الذي عرفه قد حل مكانه أغراء أشد يترافق عادة مع النضج. وقال لها: «تفضلي بالجلوس.»

فجلست على أقرب كرسي إليها، ثم وضعت ساقاً فوق أخرى بشكل عفوي. قد تقوم دزينة من النسوة بمثل هذا العمل إنما دون نصف الإغراء الذي تبدو هي به.

ولكن بريتاني كانت دوماً متغردة برشاقة طبيعية تجعلها مختلفة عن الأخريات.

سألها: «لماذا أنت هنا؟» وما لبث أن سارع يقول وهو يلعن عدم لباقته: «... أعني... وأنا أيضاً يسرني أن أراك. كيف كانت أحوالك؟»

فترددت، ثم خفضت نظراتها وهي تمدّ بيدها على زخارف حقيبتها. كان في تجنبها التقاء نظراتهما بقايا من بريتاني القديمة، ما جعله يتساءل عما إذا كانت من الثقة بالنفس كما بدت لأول وهلة.

وعادت تنظر إليه: «كانت أحوالي حسنة، وأنت؟»

وضع مرفقه على المنضدة، وهو يفكر... غريب. لقد كانت هذه زوجتي... ولكنني، مع ذلك، لا أستطيع التفكير في كلمة أقولها.

وعندما طال الصمت بينهما إلى حد يثير الضيق، قال: «وهكذا... إنها مدة طويلة مضت.»

«إنني أعيش الآن في فانكوفر.»

«هكذا إذن. إنها مدينة حسنة.»

ابتسمت برقة: «إنني أحبها عندما لا يمطر الجوّ.»

فبادلها الابتسام قائلاً: «هذا لا يحدث كثيراً كما سمعت.»

«وكيف حال والديك؟»

«بخير. كان أبي في الكويت يقوم بأحد مشاريعه. أما والدتي فقد انتهت لتوها من إعادة زخرفة المنزل... مرة أخرى.»

فابتسمت بريتاني وهي تلوي شفتيها، متسائلة عن السبب الذي يجعل بعض الناس يحبون تغيير منازلهم رغم اكتمال جمالها. وكان منزل آل ماك كول يزهو بطريق خاص دائري، وردهة رخامية إيطالية الطراز ومطبخ اسكندينافي، ولوحات فنية لا تحصى... هذا إلى أربع مداخن من الحجر.

كانت ذكرى ذلك المنزل كافية لاعادة الشعور بانعدام الأمان إلى ذاكرة بريتاني.

كانت قد بلغت الواحدة والعشرين عندما رأت ذلك المنزل لأول مرة، وكانت بالغة الحرص على أن لا يصدر عنها أي خطأ في العمل أو القول وهي تقابل والدي لوك. ومن المضحك أن المنزل كان أكثر ارستقراطية بعشر مرات من أولئك الذين يسكنون فيه، والذين كانوا صريحين بشوشين. كان في والدي لوك كل الصفات التي كانت تتمنى أن تكون في والديها، الأمر الذي جعلها متلهفة إلى أن تكون فرداً في مثل هذه الأسرة ذات المشاعر الدافئة المحبة.

ولكنها مع كل رغبتها في الانسجام معهم، لم تلبث أن

أدركت، والكآبة تكتنفها، أنها لا تتلاءم مع طريقة حياة آل ماك كول. ويبدو أن الأشياء التافهة مثل نوع الشوكة التي تستعمل لكل نوع من الطعام، مثلاً، هذه الأشياء سرعان ما بدأت تهز ثقة بريتاني بنفسها والتي كانت مهزوزة منذ البداية، ومن ثم ابتدأت تختلق الأعذار لتجنب الذهاب إلى منزل آل ماك كول.

أخذ لوك يراقب باهتمام نظرات بريتاني التي كانت تزداد غموضاً. فقد أخذت تدعك يداً بالأخرى ببطء وكأنها تشعر بالبرد أو العجز. وعجب هو مما عسى أن يشغل بالها. أتراها تتذكر زيارتهما معاً لحديقة الحيوانات للتفرج على طفل الزرافة؟ أم تلك العطلة الاسبوعية التي ذهبا فيها إلى بانف للتزحلق على الثلج فلم يتركا الكوخ قط؟ أم تلك الأمسية على شاطىء البحيرة قرب منزله عندما طلب منها الزواج منه؟

وحدث نفسه قائلاً، دع عنك هذا، يا لوك فلا فائدة من استعادة الماضي، الآن.

وسألها معيداً نفسه إلى واقعه الحاضر: «إذن، صادف أنك في زيارة إلى كالغاري الآن، فحدثتك نفسك بالمرور إلى مكتبي لرؤيتي، أليس كذلك؟»

كان يريد أن يبدو عفوياً، ولكنه بدلاً من ذلك، بدا متشككاً، فقد كان يدرك أنهما كانا افترقا منذ أمد طويل، وأن ذلك لم يحدث بينهما عن تراض ووفاق. ذلك أنه كان يحاول أن يفهم منها لماذا كانت كذبت عليه، قبل الزواج، بالنسبة لشخصيتها الحقيقية ومكان سكنها. وفي النهاية، عندما أوشك على تفهم الموقف، إذا به يصدم وهو يراها قد اختفت من على وجه الأرض دون أن تترك أثراً يدل عليها أو عنواناً.

تحولت نظرات بريتاني عنه، قائلة: «كلا، في الواقع. فقد جئت إلى كالغاري خصيصاً لأراك.»

فقطب جبينه: «جئت لرؤيتي؟»

«نعم.»

أخذ يراقبها وقد بدت وكأنها تبحث عن كلمات استعصت عليها.

فسألها: «هل الأمر يتعلق بأبيك؟»

فهزت رأسها نفياً: «كلا. لقد توفي أبي، في الواقع، منذ ثلاث سنوات.»

شعر لوك بتحفظ بريتاني، وكأن توتر شفتيها يمنع الكلام من الانطلاق.

فقال برزانة: «آسف، لم أكن أعلم ذلك.»

«لم يظهر بلاغ عن ذلك في صحيفة. وطالما تساءت عما إذا كان علي أن أقوم بذلك. متصورة أن نعيه لا بد كان سيسعد كثيرين.»

ساد الجو صمت متوتر. كان غضب بريتاني ممزوجاً بالحزن، وقد يكون الاحباط أيضاً. مع أنه أراد أن يقول شيئاً يلطف من مزاجها، إلا أنه أحس بأن مشاعرها من ناحية أبيها كانت أعمق مما يظن. كما أنه أدرك أن لا الوقت ولا المكان يسمحان بالخوض في تلك المشاعر. وكانت سبق وجعلته يفهم، وذلك منذ سنوات، أن مشاكلها الشخصية هي ملكها هي ولا تريد مساعدة من أحد.

فقال وهو يتكىء في كرسيه إلى الخلف: «أخبريني إذن. ما الذي جعلك تقطعين كل ذلك الطريق لكي ترينني؟»

تنفست بريتاني بعمق، ثم نظرت في عينيه مباشرة،

والتصميم يمد كيانها بنفس القوة التي أحضرتها إلى هنا. فهذه كانت اللحظة التي جاءت لأجلها. إنها اللحظة التي جعلتها تسهر الليالي تتدرب مرة بعد مرة إلى أن حفظت عن ظهر قلب الكلمات التي ستقولها له.

ذلك أن هذه هي آخر فرصة لها تنقذ فيها حياة برايان.

«جئت إلى هنا، يا لوك، لأنني بحاجة إلى عونك أكثر مما احتجت أي شيء في حياتي.»

انتظر منها أن تتابع كلامها. وعندما لم تفعل هز كتفيه قائلاً: «لك هذا. ما هي المشكلة؟»

فأجابت بهدوء: «إن ابننا مصاب بمرض سرطان الدم. وأريد منك أن تجري فحصاً لدمك توطئة لزرع نخاع العظم له.»

الفصل الثاني

حبست بريتاني انفاسها في انتظار جواب لوك، ولو كانت صفعته على وجهه لما بدا مصعوقاً إلى هذا الحد، لقد تقطب جبينه واظلمت عيناه... واللتان هما عينا برايان بالضبط كما أدركت فجأة، لقد كان الوالد والابن يتشابهان في نفس العينين البنيتين العميقتين، وفي نفس التحفظ الذي يخطىء الانسان فيحسبه نفوراً وانعزالاً، وفي نفس الانضباط النفسي الذي يجعلها الآن شبه مخبولة.

تباً له، لماذا لا يقول شيئاً؟ لشد ما كانت تكره منظره الجامد الخالي من المشاعر، هذا. آه، ربما اخطأت في تصرفها، كان عليها ان تنتظر إلى ان يذهبا إلى مكان ما، مطعم مثلاً، أو حديقة، أولاً...

لكنها عادت فحدثت نفسها بحزم ان مكان المصارحة غير مهم، ذلك لأن طريقة تلقي لوك لهذا الخبر هو هو مهما اختلف المكان، نظرت إلى ملامحه وقد كساها عبوس حذر فأدركت انها اذا لم تستمر في الحديث فهي ستفقده.

فقالت: «انني اعلم ان هذا ليس...»

فقاطعها: «قوليها مرة أخرى... (إبننا؟)

فجاهدت للاحتفاظ بثبات صوتها: «نعم، ابننا يعاني من مرض السرطان، وهو بحاجة إلى العون منك.» فزاد عبوس لوك بينما تابعت هي تقول: «انني اعلم ان هذا لا بد قد شكل صدمة لك، ولكن...»

romancia.com

فقال بحزم: «كفى، يا بريتاني.» ثم نهض واقفاً واخذ ينظر إليها بارتياب. «لا ادري أي لعبة تقومين بها، ولكننا أنا وأنت ليس لنا أولاد.»

أجفلت بريتاني، نوع من التوتر احست به في صوته جعل الخوف يتملكها، كانت بحاجة إلى جعله يستمع اليها وهي تشرح له ظروف برايان وتصورت ابنها فتجددت عزيمتها، وقالت: «بل لدينا. انه صبي في السادسة من عمره واسمه برايان، عندما تركت هذه المدينة كنت حامل.» لم تشأ ان تشعر بالخوف وهي ترى كيف انغرزت يداه في ظهر كرسيه المنجد.

نهضت واقفة وتقدمت منه خطوة، لم يكن الأمر يسير كما يجب، لقد أحست بذلك، ربما كانت حمقاء وهي تتصور ان لوك سوف يتقبل هذا الأمر بشكل افضل، والأكثر من ذلك انه اطلق ضحكة عدم تصديق وهو يفك ربطة عنقه، ثم فتح ياقة قميصه والزر الأعلى منه.

قال: «بريتاني انني لم اعد ذلك الفتى الساذج ذا الرابعة والعشرين. لم اعد اصدق الحكايات كما اعتدت، كما انني لن اصدق هذه.»

«ولكنني لست...»

«اظن ان عليك ان تذهبي الآن.»

جمدت بريتاني في مكانها، انها تعرف هذه النبرة في صوته، انها تعني ان لوك قد قرر على شيء ولم يعد ثمة شيء بإمكانه ان يغيره، لقد كان تكلم مرة من قبل بهذا الشكل عندما تكلم ضده صديق له من عهد الدراسة بما يسوءه. ذلك الصديق الذي لم يحصل قط، بعد ذلك على

عفو لوك عنه، والعفو هو الشيء الوحيد الذي لم يتعود عليه لوك ماك كول.

حسناً، فليكن. لقد حان الوقت لكي يعلم لوك ماك كول ان الأمر اذا كان متعلقاً بسعادة ابنهما وحياته فهي ستقاتل بضراوة اللبوءة، ولا بد ان يعلم الآن في هذه اللحظة انها في سبيل حياة برايان، مستعدة للقتال حتى الموت...

«ارجوك يا لوك استمع إليّ، فأنا اخبرك بالحقيقة.»

استدار اليها وقد اظلمت عيناه، وبدا فيهما الاتهام: «حسناً، اسمحي لي بالقول، ان ليس لديك في سجلك السابق ما يدعو إلى الثقة في كلامك.»

إزدردت ريقها بصعوبة وقد تملكها الألم، ذلك ان لوك اخذ يتذكر كل التفاصيل المحرجة لآخر ايامهما معاً، وهي لا تلومه لذلك، ولكن هذا الموضوع ليس هو الذي تريد خوضه حالياً.

فقالت معترفة: «انني اعلم ان ما كان لي ان احتفظ بأسرار، وانا آسفة لذلك. ولكنني كنت صغيرة وحمقاء، انني اعرف ما تفكر به...»

فأجاب بحدة: «كلا، هذا غير صحيح.» وضرب مائدة الاجتماعات بقبضته بقوة جعلتها تجفل، «ليس لديك فكرة عما كنت افكر فيه في ذلك الحين، كما انك لا تعرفين ابداً ما افكر فيه الآن. من تظنين نفسك لكي تأتي إلى هنا بقصة كهذه؟»

وانخفض صوته بشكل ينذر بالخطر: «أريد أن أعلم من تظنين نفسك لكي تتصرفي نحوي بهذا الشكل مرة أخرى؟»

لم تجرؤ على سؤاله عما يقصد بكلمة هذا الشكل. ليس لأن هذا بالأمر المهم. فهما يتحدثان الآن عن برايان... الحاضر والمستقبل، وليس الماضي الذي لا يمكن تغييره. وهكذا بادلته نفس النظرات الملتهبة والحزم وهي تقف أمامه وقوف الند للند.

وقف لوك مندهشاً. إنه لم ير هذه الناحية في بريتاني من قبل. كانت عيناها تتألقان بالعزيمة، تتحداه أن يقاتلها على هذا الأمر. ولم يملك إلا أن يشعر نحوها بالاحترام لاستماتتها هذه في سبيل ما تؤمن به.

كانت تردد كلمة: «إن... برايان... هو... إبنك. وقد يكون في إمكانك أن تساعده... ثق بي... فأنا ما كنت لآتي إليك اليوم إذا كان هناك أي طريقة أخرى لانقاذ حياته.»

فتوتر فك لوك وهو يقول: «أثق بك؟ هذا مؤكد. سأثق بك بنفس الطريقة التي كنت أنت وثقت بي بها.»

أخذ ينظر إليها وهي تخفض نظراتها وقد توترت شفتاها. بدا وكأنها على وشك الانفجار وأدرك ما تشعر به. فمشاعره بالنسبة إلى بريتاني، أقرب إلى الرغبة في التسرية عنها، ولكن من الواضح أن وضعه في التعامل مع مشاعرها هذه ليس بأفضل منه عند بداية اختفائها من حياته.

شعر بألم في رأسه، فأخذ يدعك جبينه للتخفيف منه، ثم ابتعد عنها سائراً نحو النافذة. كانت شمس كانون الثاني (يناير) تلف بأشعتها المرئيات ما جعله يتلهف إلى أن يكون في أي مكان ما عدا هذا المكتب الذي يعاني فيه من هذا الوضع السخيف مع امرأة أحبها يوماً، وعادت

الآن إلى حياته. كان يريد هواء نقياً... الهرب. كان يريد أن ينجو من المكتب ويركض إلى أن يبتل جسده بالعرق وتحترق رئتاه.

وتساءل عما إذا كان الصبي ابنه حقاً، وعما إذا كان عليه أن يجري له فحص الدم المطلوب. رأى صورة بريتاني منعكسة على زجاج النافذة، وحاول أن يتصور شكل ابنها. هل له مثل شعرها البني الكث، أم أنه أشقر؟ هل هو طويل نحيف أم هو قصير بدين؟ وهل هو صبي مشاغب أم أنه يماثل بريتاني في هدوء طباعها؟

ثم، هل أنا والده؟ فكر لوك في هذا لحظة ثم لم يلبث بعدها أن نبذ هذه الفكرة. فليس من المعقول أن تحتفظ بريتاني بهذا السر سبع سنوات. أو ماذا إذن؟

سمع صوت خطواتها وهي تقترب لتقف بجانبه. كانت هي المرأة التي ظن يوماً أنها ستكون دوماً إلى جانبه، وإذا بها تشتت أحلامه وتكشف عن ضعف ثقتها في قدرته على تفهم مشاكل الآخرين. لم ينظر إليها، ولكن عطرها الناعم وصل إليه على كل حال. فأغمض عينيه ليصد الذكريات.

لماذا تفعل هذا به، إذ تعود إلى احياء كل الآلام والغضب الذي استغرق منه نسيانه وقتاً طويلاً؟ ألا يكفي ما سببته له من معاناة؟

عندما وصلت إليه ووضعت يدها على ذراعه. نفض ذراعه منها مبتعداً وما زالت عيناه على خيال تلك الجبال البعيدة المكللة بالثلوج، ثم سألها: «لماذا؟ لماذا تركتني بتلك الطريقة؟»

«كان هذا هو الأفضل.»

فاستدار إليها محاولاً أن يفهم ما بقي غامضاً بالنسبة إليه، سنوات كثيرة، استدار يسألها مقطباً جبينه: «الأفضل لمن؟ لي؟ كنا قد تزوجنا لتونا، فماذا حدث؟»

تنهدت بريتاني بيأس: «لم تكن الأمور بتلك البساطة. كانت هناك... ظروف... أمور لم أستطع معالجتها... مشاكل لم تكن تستطيع أنت مساعدتي في حلها.»

«هذا لأنك لم تدعيني أفعل ذلك.»

تقابلت نظراتهما، وترددت، ثم أومأت. إن معه الحق في لومها. فهي التي لم تشأ، أو لعلها لم تستطع الافضاء إليه، مفضلة أن تتخلى أخيراً، عن حياة بالغة السعادة وذلك دون اهتمام. وها إن الوقت قد حان الآن لدفع ثمن ما قامت به في صباها: «إنني آسفة، ومن كل قلبي... أنا أسفة. فأنت لم تكن تستحق سوى الأفضل.»

فأومأ يقول بذهن غائب: «نعم، هذا صحيح.»

قاومت بريتاني الرغبة في مد يدها إليه مرة أخرى خشية أن يظن في ذلك شفقة منها عليه. ثم همست: «إنني آسفة لاضطراري للقدوم إليك، وأنت تعلم ذلك.»

فقال: «أحقاً؟ لا أظنني أعلم ذلك. فأنا لست واثقاً من شيء.»

سكتت لحظة ثم قالت: «لقد أحضرت عدة صور...»

فقال: «احتفظي بها لنفسك، فالأمر لا يهمني. هذا إلى أنها لا تثبت أن الصبي هو ابني.»

قالت: «قد لا تثبت الصور ذلك، إنما يثبتها فحص الدم لتثبيت الأبوة.»

كاد يزمجر غاضباً، لماذا تقوم بذلك العمل متجاهلة

ضيقه الواضح إذ تصر على أنه والد الصبي؟ ألا يمكنها أن ترى أنه، في أعماقه، يريد أن يصدقها ولكن عدم الثقة بها التي غرستها في نفسه نحوها تأبى عليه ذلك؟ ألا يهمها أبداً أن...

ونظر في عينيها فأدرك العكس، وهو أن اهتمامها هو الذي جعلها تقف هنا الآن مواجهة غضبه وحنقه. نعم، فقد كانت نظراتها العنيدة تنبىء بتصميمها الأعمى، كما أنها تنبىء عن عدم الاهتمام بكبريائها الشخصي. ولكن الارتجاف الخفيف في شفتها السفلى كانت تدل على الخوف. ذلك الخوف الذي لا يعرفه وإنما يتصوره فقط. ذلك لأنه لم يسبق له قط أن واجه الموت كما تواجهه بريتاني الآن.

حدقا ببعضهما البعض لحظة طويلة إلى أن حسم لوك الموقف. فوضع يداً على وركه بينما أخذ يمر بيده الأخرى على رقبته من الخلف. لقد كان الألم خلف عينيه يتزايد بين لحظة وأخرى. كان بحاجة إلى الهواء الطلق، إلى شراب منعش، إلى أشياء كثيرة ما عدا الجدل مع بريتاني.

قال: «إذا أنا أجريت فحصاً لمعرفة ما إذا كان دمي ملائماً... أعني (إذا)... ولم تأت النتيجة ايجابية... ماذا بعد ذلك؟» أضاف الجملة الأخيرة وهو يرى ابتسامة مترددة على شفتي بريتاني.

عند ذلك تلاشت ابتسامتها على الفور: «عند ذلك سيموت برايان خلال سنوات قليلة.»

أخذ لوك يقلب في ذهنه الامكانيات كافة وقد لوى شفتيه نفوراً. سواء كان ابنه أم لا، فالطفل يستحق أن يعيش.

قال: «إنني بحاجة إلى بعض الوقت للتفكير في هذه المسألة. إنني... إنني مشغول حالياً، وأكون شاكراً لو تخرجين الآن.»

شعرت بريتاني وكأنها تلقت صفعة. كيف بإمكانه أن يفكر في العمل بعدما أخبرته به؟ وإذ رأت الاضطراب والتشوش يبدو عليه، شعرت بحاجته إلى العودة إلى جو مألوف لديه يشعره بالراحة. وتذكرت كيف أنها أخذت تنظف أرض المطبخ أثناء ساعات الصباح وذلك بعد أن علمت بأن برايان مريض.

عليها، على الأقل، أن تسمح للوك بأن ينظف أرض مكتبه.

وأخيراً قالت: «لا بأس.» استقامت في وقفتها وهي تتنفس بارتياح: «يمكننا أن نتحدث غداً.»

فقال بحدة: «أنا الذي أقرر متى نتحدث في ذلك مرة أخرى وليس أنت.»

ترددت، ثم ابتعدت عنه متجهة نحو الكرسي الذي كانت جالسة عليه. وبقي هو واقفاً وظهره إليها، يستمع إلى الحفيف الصادر عن بحثها في حقيبة يدها، ثم قولها وهي تكتب شيئاً على بطاقة: «هذا اسم وعنوان الفندق الذي أقيم فيه. زرني في أي وقت.»

نظر أولاً إلى البطاقة، ثم إليها، وعلمت من رفضه أخذ البطاقة أنه لن يفعل ذلك بسهولة. عادت إلى حيث المنضدة فألقت عليها بالبطاقة، أحدث ذلك صوتاً خفيفاً خرق سكون الغرفة مخبراً لوك بأنها لا تنوي التراجع.

قالت بصوت متوتر: «إلى اللقاء. إنني بانتظار زيارة منك.»

وعندما انغلق الباب خلفها، إتكأ على عتبة النافذة وأغمض عينيه. كان استياؤه وغيظه من بريتاني، في تلك اللحظة، قد بلغ حداً لم يكن يتصوره. ثم أخذ يمعن النظر في الشارع أسفل، وكان وقت انصراف الموظفين من أعمالهم. المشاة على الأرصفة، بينما السيارات منطلقة جيئة وذهاباً، وتمنى لو أنه يختفي بين تلك الجموع إلى الأبد...

لكنه ضرب عتبة النافذة بقبضته وقد تملكه اليأس. وهو يتمتم لقدومها إلى هنا وجعله يتذكر مشاعره السابقة نحوها، وكيف داست على ثقته بها، وكيف أنها تعود الآن إلى حياته لتقبلها رأساً على عقب بعد أن أخذت في النهاية، تسير على ما يرام.

استدار وأخذ ينظر إلى البطاقة التي تركتها له على المنضدة.ثم تقدم حيث أخذ ينظر إليها عدة ثوان قبل أن يمد يده ويأخذها. كان اسم بريتاني مطبوعاً على مقدمتها بأحرف سوداء وكان مركزها الوظيفي هو مساعدة في مؤتمرات التنسيق لسلسلة من الفنادق في فانكوفر وقد ذكر أسفل البطاقة. وإذ قلب البطاقة رأى اسم أحد فنادق هذه السلسلة في كالغاري حيث تقيم.

وقال بصوت عال: «الغرفة رقم ٩٠٦.»

ترك قاعة المؤتمرات وهو يمزق البطاقة ثم يلقيها في سلة مهملات كارول، المليئة، فاستقرت قطعها على القمة، بينما وقف لحظات يتأمل في الماضي.كانت حياته مع بريتاني قصيرة الأمد ولكنها سارة، أو هكذا كان يخيل إليه. وكانت كراهية بريتاني للحديث عن نفسها وأسرتها لم تفعل

سوى أن ساهمت في اغراء جمالها إذ أضفى عليها مسحة من الغموض كان يثير فضوله. ولما كان قد نشأ على عدم إدانة الآخرين، فقد تقبلها كما هي ولم يحاول التطفل حتى عندما استحوذت على مشاعره طبيعتها المتكتمة ما جعل فضوله كاسحاً.

تنهد لوك بعمق. لم يكن قد أخفى شيئاً عن بريتاني يتعلق به. حدثها عن أسرته وشاركها آماله وأحلامه، بينما لم تفعل هي شيئاً بل أخفت حقائق حياتها تحت ستار من الأكاذيب.

تملكه الشك وهو يحدق إلى خط بريتاني على البطاقة حيث ألقى بها، أتراها تنطق بالحقيقة هذه المرة؟ هل من الممكن أن يكون ابنها ابنه أيضاً؟ وما الذي سيحدث لو أن برايان كان في الواقع، ابنه؟

شعر بصداع مؤلم، فاتجه إلى مكتبه حيث أخذ حبتي اسبرين. ربما هذه الكومة من الأوراق على مكتبه ستشغل ذهنه عما حدث هذا النهار، وإلا فسيبحث عن شيء آخر لهذا.

ولأن بريتاني أفسدت عليه حياته مرة، فهو لن يدعها تقوم بذلك مرة أخرى.

وسيكون حريصاً على ذلك.

• • •

خرجت بريتاني من الحمام مرتدية روب الاستحمام الوردي. لقد خففت المياه الساخنة كثيراً من التوتر الذي تملكها بعد اجتماعها بلوك عصر هذا النهار، رغم أنه لم يخفف من ذلك القلق المزمن الذي يرافقها منذ أكثر من عام.

تمتمت وهي تتوجه إلى غرفة جلوسها، تخاطب خيال لوك: «لا بد أن أجعلك تستجيب إلى العقل، وذلك بأي شكل كان.»

أخذت تسرّح شعرها وهي تفكر في رفضه مناقشة أمر برايان. لقد ثار غضبها في البداية. ثم شعرت بالألم، ثم الحزن، ثم ثار غضبها مرة أخرى. أما الآن فهي لا تفهم نوع شعورها. ما عدا الخوف من عناد لوك.

فالأمر سيكون أكثر مشقة مما كانت تظن. وقطع عليها أفكارها صوت رنين الهاتف، فأسرعت إليه: «آلو...»

«آلو، ماما... أنا برايان.»

ارتسمت على شفتيها ابتسامة دافئة: «آلو، يا حبيبي. كيف حالك؟»

«أنا بخير. متى ستعودين إلى البيت؟»

فقالت ضاحكة: «ولكنني وصلت إلى هنا لتوي يا برايان. إنني لم أنته من عملي بعد.»

«هل اشتريت لي هدية؟»

فقالت ضاحكة: «نعم. لقد اشتريت لك هدية.»

«هل في الهدية جياد؟»

نظرت إلى القميص المنشور على ذراع المقعد وأجابت: «نعم، يوجد مليون من الجياد في الهدية.»

«هذا حسن. السيدة كاي تقول إنها تريد أن يكون على قميصها كثير من رعاة البقر، وليس الجياد.»

انفجرت بريتاني ضاحكة. كانت السيدة كاي صديقتها وجليسة برايان. وكانت بالغة الظرف والكياسة.

«أخبرها بأنني سأحاول قدر إمكاني.»

«علي أن أذهب الآن فقد بزغت النجوم.»

«حسناً، تمدد على الأريكة، وسأتحدث إليك غداً.»

«لا بأس.»

أضافت تقول: «برايان، تذكر دوماً.»

«أعلم، يا ماما. إنك تحبينني. والآن علي أن أذهب إلى اللقاء.»

وصمت الهاتف. فحدقت بريتاني إلى السماعة وهزت رأسها وهي تضع السماعة باسمة. ذلك الطفل أغلى من حياتها. فهي لا تبخل عليه بأي شيء، وتقوم لأجله بكل شيء.

بما في ذلك الخصام مع لوك.

قفزت واقفة، وذلك عندما ارتفع طرق على الباب.

لقد كانت أمرت باحضار العشاء رغم أنها لم تكن جائعة. لا بأس، إنها ستأكل الشطائر وتشرب القهوة إذ عليها أن تحتفظ بقوتها. قالت وهي تجذب الباب الثقيل: «حسناً، ضعها عندك...»

تلاشت ابتسامتها وهي ترى لوك واقفاً أمامها ويداه في جيبي سترته الطويلة الشامواه. كان شعره مشعثاً وكأنه كان يسوق السيارة ونافذتها مفتوحة. كما كان يرتدي قميصاً قطنياً بسيطاً وينطلون جينز حائل اللون.

احمر وجه بريتاني وبادلت لوك نظراته وهي تقول: «آسفة، ظننتك خادم الفندق.»

«هل أستطيع الدخول؟»

«آه بالطبع.» تنحت جانباً فدخل، وملأت رائحة عطره خياشيمها تداعب حواسها.

قالت وهي تشير إلى مقعد: «لم أكن أتوقع قدومك. تفضل بالجلوس.»

فتردد وهو يلقي عليها نظرة متحفظة قبل أن يجلس: «كنت أجول بسيارتي، وعندما مررت من هنا رأيت أن أمر عليك.»

فابتسمت وهي تجلس على كرسي مقابل: «إنني مسرورة لحضورك.»

جلست على حافة المقعد وهي تجذب اطراف روبها حولها، متلهفة إلى الذهاب إلى غرفتها لترتدي ملابسها، ولكنها كانت تخشى إذا هي تركته أن يغتنم هو الفرصة فيغادر.

قالت تبدد الصمت: «لقد أمرت بالقهوة. هل تريد شيئاً منها؟»

فقال وهو يجلس بكل راحة: «كلا، شكراً. فأنا لن أتأخر.»

لم يعجبها ذلك. كانت تريده أن يبقى لكي يستمع إليها جيداً، وإلا فلن تتمكن من انجاز ما تريد.

قالت بعفوية: «إذن فقد كنت تتنزه بالسيارة. هل ذهبت إلى مكان خاص؟»

فهز كتفيه: «هنا وهناك. كان علي أن أسلم هدية في منزل صديق. إنك لا تعرفينه.»

وذكرتها هذه الملاحظة العابرة بأنها كانت ذات يوم تعرف الكثير من أصدقائه... فقد كان لوك شخصاً اجتماعياً، وقد كان قدمها إلى كثير من الناس أصبحوا أصدقاءها فيما بعد.

وقالت: «إنني مسرورة لمرورك علي. فهنالك الكثير عن برايان لم أستطع اخبارك به عند لقائنا.»

فقال: «ليس هذا سبب قدومي.»

فعجبت لذلك. هل من الممكن أنه لا يعرف سبب قدومه؟

سألها بفتور: «لماذا لم تتصلي هاتفياً قبل قدومك إلى مكتبي هذا النهار؟ أما كان بإمكانك أن تمنحيني بعض التنبيه؟»

قالت تعترف: «كنت متوترة للغاية، فلم أعرف الطريقة الأصح للتصرف مع الموقف، وهكذا قررت أن أحضر فجأة.»

لم تتحرك في وجهه عضلة واحدة إزاء جوابها وإنما جلس يحدق فيها بصمت وجمود. ورغم تصميمها على أن تبقى متمالكة لنفسها، إلا أن سيطرته على أعصابه قد أغاظتها. وإذا كان يستعمل هذه الاستراتيجية في دنيا الأعمال، فقد أدركت الآن سر نجاحه.

سألها: «هل ذهبت إلى فانكوفر رأساً بعد انفصالنا؟»

أخذت بريتاني تعبث بقماش الروب الذي ترتديه. لم تكن هذه أسئلة سارة منه، وتساءلت كيف بإمكانها أن تحول الحديث إلى ما تريد، ولكن نظرة إلى ملامح لوك الجامدة جعلتها تدرك أن عليها أولاً أن تجيبه إلى سؤاله.

فأجابت: «نعم. لقد انتقلت من منزل والدي في خلال ثلاثة أيام. وبعد ذلك بأسبوعين، كنت في فانكوفر.»

«ومع من أمضيت الاسبوعين؟»

«مع صديقتي جويس. إنك تتذكرها، أليس كذلك؟»

فقال ببرودة: «نعم. فهي التي أعطتني عنوانك الحقيقي.»

فعضت على شفتها. كانت قد ذهبت مباشرة إلى صديقتها تلك. فهو طبعاً يتذكر. فقد كان عنوان جويس هو الذي أعطته بريتاني للوك باعتباره عنوانها هي، وذلك لتغطية واقع أنها نشأت في حي من المدينة من الانحطاط بحيث لا يستطيع شخص مستقيم أن يسير فيه وحده ليلاً. كانت نشأتها شيئاً حفظته سراً عن لوك طوال الأشهر الثلاثة التي أمضياها معاً. في ذلك الحين كانت تعتبر ذلك تحفظاً، ولكنها، وهي تستعيد الماضي، تدرك أنه كان من العبث أن تخفي حقيقتها متخذة شخصية أفضل من شخصيتها الحقيقية. وكفقاعة الصابون الواهية الاساس، سرعان ما انفجرت عندما اكتشف لوك حقيقتها.

قالت شاعرة بنفس الحرج الذي اعتاد أن يتملكها كلما أخذت تقارن بين نشأتها ونشأة لوك: «لقد كانت جويس طيبة تماماً معي. فقد أعطتني عناوين عدة أشخاص في فانكوفر للاتصال بهم لكي يساعدوني على الاستقرار.»

فأومأ قائلاً: «وهكذا رأيت من الضروري مغادرة كالغاري بأسرع ما يمكنك.»

فأجابت بسرعة: «كلا، ليس بالضبط. إنني فقط رأيت أن لا فائدة من البقاء، وهكذا...»

فقال متوتراً: «لا بأس. لقد فهمت الموقف. وماذا فعلت عندما وصلت إلى فانكوفر؟»

وبقدر ما كرهت الاجابة عن هذا السؤال، شعرت بالارتياح لاستمرار الحديث بينهما.

فأجابت: «حسناً، لقد استضافتني صديقة لجويس عدة أيام. ثم وجدت شقة رخيصة. وكنت في كالغاري قد وفرت بعض المال ما ساعدني إلى أن وجدت وظيفتين ما زاد من دخلي.»

«كنت حاملاً، ومع ذلك قمت بوظيفتين؟»

نظر إليها بعينين ثاقبتين بدا الاستياء فيهما، ما نبه بريتاني إلى التزام الحذر في ما تقول: «إنهما لم تكونا وظيفتين شاقتين. فقد كانت إحداها كمساعدة لمستشار ضرائب، أما الثانية فقد كانت نادلة في مطعم بنصف دوام.»

سكت لوك فترة بدا فيها أنه كان يفكر في كل كلمة قالتها، ثم سألها: «وماذا بالنسبة إلى وظيفتك في الفندق؟ كيف حصلت عليها؟»

«لقد أنجزت في الواقع، بعض الحسابات لفتاة كانت تعمل في مكتب المبيعات. وعندما شغرت وظيفة في الفندق أخبرتني بذلك.»

«أبهذه السهولة؟»

«كلا بالطبع. فقد كان ذلك بعد سنوات من انتقالي إلى تلك المدينة.» وشعرت بريتاني بخفقات قلبها تتسارع، فتنفست بعمق لتهدئة نفسها. فقد ضايقها استمرار لوك في القاء الأسئلة كما أنها خافت أن يزل لسانها بشيء قد تندم عليه فيما بعد. وتابعت تقول: «بعد ولادة برايان بوقت قصير، ابتدأت في حضور صف ليلي...»

«ومن كان يرعاه حين خروجك؟»

«لقد وجدت جليسة رائعة للأطفال. إنها سيدة ناضجة في

السن من انكلترا. وقد كانت ترملت حديثاً وتبحث عن عمل يشغل أيامها. وهي ما زالت معنا، ونحن نعتبرها فرداً من الأسرة.»

نهض لوك واقفاً. كان بالغ التوتر، فهو ما زال لا يعلم لماذا جاء إلى هنا بعد أن كان قرر أن يمضي الليل في التأمل والتفكير في ما حدث ذلك النهار. وقد قام بمكالمتين هاتفيتين أجاب أثناءهما الطبيب بسرور على أسئلته الكثيرة.

خصوصاً السؤال الأكثر أهمية على الاطلاق. لقد كان الطبيب صريحاً... فهناك أمل جيد إذا ما وجدت بريتاني لوك. إذن فهو والد برايان.

وقع نظره على قميص بحري صغير منشور على نراع أحد المقاعد، فشعر بالتوتر. أهو لبرايان؟ تساءل عن ذلك وهو يرى صور جياد تعدو على صدر القميص. هل يحب الصبي الجياد؟ هل يركب الجياد؟ وهل يقوم بذلك قبل أن...

قال فجأة: «لقد قمت بعدة اتصالات هاتفية بعد خروجك من المكتب هذا النهار.» وأخذ يدور حول المنضدة محاولاً تفادي النظر إلى بريتاني.

وتابع يقول: «قالوا إن احتمال أن يكون الوالد ملائماً، ليس كبيراً.»

فقالت: «هذا صحيح. فهذا لا يكون ملائماً بشكل مطلق. ولكن الاحتمال يستحق التجربة.»

سار نحو النافذة وأخذ يحدق إلى السماء من خلال الستائر الشفافة. بينما كانت هي تتابع بصوت متهدج: «إن برايان هو كل ما لدي في العالم.»

كان مستحيلاً أن لا يشعر بالخوف في صوتها، رغم تمالكها لنفسها. ولكنه، رغم كل اهتمامه بها، لم يستطع حمل نفسه على الذهاب إليها. لقد كانت رفضت اهتمامه بها من قبل. كان يريد أن يحترم رغبتها في معالجة أمورها بنفسها، ولكنها، مع ذلك،لا تعدو أن تكون بشراً. وهو ليس من الناس الذين يتفرجون على آلام الآخرين بينما بإمكانهم تخفيف آلامهم.

قال: «لقد قررت إجراء فحص الدم.»

فأحنت رأسها وهي تهمس من خلف شعرها الذي يخفي معظم وجهها: «شكراً. شكراً.»

عاد إلى النافذة وهو يقول: «وهذا لا يعني أنني أعتقد أن الصبي هو ابني حقاً. كل ما أعتقده هو أن كل إنسان يستحق أن تحصل له فرصة للحياة.»

من زاوية عينه، رأى بريتاني تستعيد تمالكها لنفسها وتمسح دمعة عن وجنتها، بينما تستقيم في جلستها.

وقالت بجمود: «إنني متفهمة لذلك.»

لم يكن هذا هو الجواب الذي كانت تتطلع إليه، ولكنه يفيد في الوقت الحاضر. وسيكون هناك وقت كاف، يمكنها فيه اقناع لوك بالحقيقة فيما بعد، ثم تساءلت عما إذا كان من الأفضل الاختفاء من حياته إذا ما تماثل برايان للشفاء. ذلك أن لوك لم يكن يبدي تلهفاً ملحوظاً لاثبات أن برايان هو ابنه حقاً، ربما كان يفضل أن يحصلا على ما يريدان، ثم يعودان، بعد الانتهاء من ذلك، إلى فرانكوفر بصمت.

لكن كيف بإمكانها أن تسأله الآن عما إذا كانت هذه هي القضية؟ ولكن ماذا لو أعطاها جواباً قاطعاً يجرحها في

الأعماق؟ وبعد تفكير قصير قررت أن عقلها لا يمكن أن يعالج كل هذا حالياً وعليها أن ترجئه إلى ما بعد. ذلك أن ما سيحدث بعد شفاء برايان لا ينبغي أن يشغلها الآن.

قالت وهي تجاهد للاحتفاظ بهدوئها: «لقد سبق واتصلت بعيادة أمراض السرطان المحلية. إن بإمكانك أن تذهب للفحص وقتما تشاء. عليك فقط أن تتصل بهم هاتفياً قبل ذلك ليكون لهم علم بقدومك، ثم أطلب الدكتور كارسون.»

التفت لوك إليها متردداً، وأخذ يراقبها بامعان. وعندما اقترب منها احتبس نفسها وحاولت الاحتفاظ بهدوئها. كان ما يزال لوك الذي عرفته، وإن كان أحسن الآن.فهو أكثر ثقة بنفسه وبما يريده من الحياة. حسدته، فلديه كل ما يمكن أن يتطلع إليه، بينما هي غير واثقة مما يخبىء لها المستقبل.

وقف بجانبها فرفعت وجهها تنظر إليه.

وقال: «لقد كنت واثقة جداً من نفسك حتى انك اتصلت بالعيادة قبل أن أوافق أنا على فحص الدم.»

تعلقت نظراتها بنظراته شاعرة بنفسها مرهقة الأنفاس.

ثم قالت برقة: «دوماً كنت أعلم أنك تقوم بالشيء الصواب. فأنت رجل فاضل. كنت أعلم أنك لا يمكن أن تسمح لطفل بأن يتألم.»

ضاقت عيناه قليلاً وقال بهدوء: «لا تجعلي مني بطلاً، يا بريتاني. فأنا لا أخرج عن كوني رجلاً وجد نفسه... في موقف صعب. إنني لست واثقاً من مشاعري هذه اللحظة، كما أنني لست واثقاً مما ستكون عليه مشاعري غداً. ولكنني أتعهد بأن أفحص دمي مهما كان الأمر.»

أغمضت برتاني عينيها لتمنع دموع الشكر من التدفق.

لقد عانت الكثير وتمنت الكثير، لكن الاهم أن يستعيد برايان صحته، فماذا تطلب الآن سوى أن يتعاون لوك معها؟

وانحدرت من عينها دمعة، فخفضت رأسها. لم تكن تريد أن يظن لوك بها الضعف بينما قد كافحت وجاهدت لكي تصبح امرأة قوية مستقلة. لكن التوتر والغضب قد جر أعصابها إلى حافة الانهيار، فهي بحاجة إلى الراحة. وسرعان ما تتابعت دموعها.

فتمتم يقول برقة: «لا تبكي، يا بيتي. سيكون كل شيء على ما يرام.»

فاهتز جسد بريتاني لسماعها لوك يستعمل اسم الدلع لها. وأشعرتها رقته البالغة بالدفء والحنان وبالرغبة في العودة إلى ما كانت ألفته منه في الماضي عسى أن يساعدها ذلك على اجتياز مأساة الحاضر. وتأوهت من أعماقها.

سرعان ما استعادت تمالكها لنفسها والتي كانت تحدثها بأن تتذكر سبب وجودها هنا، أن تتذكر برايان والكفاح الذي ما يزال أمامها والذي لم ينته بعد وإنما ابتدأ لتوه.

شعرت بالدوار، وعندما انتبهت إلى أنه كان يتكلم نظرت إليه تسأله: «أرجو المعذرة؟»

«خادم الغرفة عند الباب.»

«ماذا؟»

«لقد قلت، الخادم عند الباب. هل أنت بخير؟»

فأومأت برأسها بينما سار هو نحو الباب وهو ينظر إليها من فوق كتفيه قبل أن يفتحه لنادل شاب يرتدي ثياباً خاصة. وعندما رأت هي الصينية الفضية الكبيرة

الحافلة بالشطائر والقهوة انحنت تفسح لها مكاناً أمامها.

قالت تحدث الفتى: «ضعها هنا، وانتظر لحظة.» وبعد أن وقعت قائمة الحساب، ذهبت إلى غرفة نومها تحضر له إكرامية من حقيبة يدها، ثم عادت تدس النقود في يد الفتى الذي شكرها وهو يحني رأسه ويغادر الغرفة.

انتظرت هي إلى أن سمعت الباب يغلق، فهتفت تنادي: «لوك.» وعندما لم تسمع جواباً بحثت عنه في غرفة الاستقبال، ثم في الحمام: «لوك؟»

شعرت بالخدر في جسمها وهي تدرك أنه رحل. وأنها ما أن تركته لحظة واحدة حتى اختفى... تماماً كما كانت تتوقع.

فكرت بعنف في جرأته هذه نحوها. فهي لم تنه حديثها بعد... لم يعطها فرصة تحدثه فيها عما كانت تفكر فيه، أن توفيه حقه من الشكر... أن... وأن... تباً لها، فهي تستحق هذا.

وتملكها شعور بالذنب ضايقها. فهي قد تلقت منه حتى الآن أكثر مما تستحق،وكانت تعرف هذا إذن ما كان لوك شعر به عندما هجرته فجأة. الغضب... الصدمة... الاذلال. ووجدت نفسها تتذكر باشمئزاز ما كانت فعلت بذلك الرجل الذي كان يعاملها كأنها من ذهب. حدقت إلى الباب. ربما إذا هي ركضت خلفه يمكنها أن تمسك به،وتخبره عما ادركته الآن فقط...

نهضت مصممة على ذلك، ومدت يدها إلى حزام الروب تفكه لكي ترتدي ملابسها، ولكنها عادت فهزت رأسها. إنه

أثناء ذلك، سيكون قد غادر الفندق قبل أن تصل إلى الطابق الأسفل. هذا إلى أن مزاجه لن يكون من الهدوء بحيث يستمع إلى ما ستحدثه به، وذلك بشكل أفضل مما كان عليه أثناء النهار.

التقطت قميص برايان وضمته إلى صدرها. وسرت في بدنها قشعريرة وهي تفكر في الأمل الجديد الذي توفر لها ولابنها الآن. سارت إلى النافذة وأشاحت الستائر الشفافة تبحث بعينيها عن لوك بين الزحام دون معرفة سابقة بلون سيارته.

الفصل الثالث

عندما عادت بريتاني من غرفة الافطار في الصباح التالي، رأت إشارة الهاتف الضوئية التي تشير إلى وجود رسالة تلتمع. وحيث أن المكالمات لم تكن تحمل إليها من الأخبار الجيدة سوى القليل، فقد شعرت بيديها تهتزان بشكل سيء وهي تلتقط السماعة وتدير قرص الهاتف تطلب بيتها في فانكوفر.

كانت الرسالة تقول: «اتصلي بالسيدة كاي في أسرع وقت ممكن.»

شعرت بريتاني بالدوار والغثيان فأخذت تترنح راجية أن تجيب السيدة كاي بسرعتها المعتادة.

«ألو؟»

فقالت بريتاني بسرعة: «السيدة كاي؟ ماذا جرى؟»

«بريتاني؟ ألو. آه انني بالغة الأسف لاضطراري للاتصال بك. كنت أرجو أن تجيبي بسرعة كيف حالك؟»

«أنا بخير. هل تتصلين بي لأجل برايان؟»

«برايان؟ آه، كلا أنا آسفة. ما كان لي أن أترك لك رسالة تشغل بالك.»

جلست بريتاني على زاوية المقعد تقاوم الخوف الذي كاد يشلّها: «لا بأس... ظننت فقط... هل هناك شيء؟»

قالت السيدة كاي تتحدث عن ابنتها الكبرى: «إنها هيلغا، لقد كسرت ساقها أثناء تزحلقها على الجليد مع أولادها

www.liilas-romancia.com

أمس، والطبيب يقول ان عليها أن تمكث في الفراش مدة طويلة.»

فقالت بريتاني باهتمام: «آه، كلا، إذن عليك الذهاب للعناية بها.» لقد كان لهيلغا ثلاثة أطفال صغار بحاجة إلى رعاية كما أن زوجها يقوم بوظيفتين.

وأجابت السيدة كاي: «سيكون هذا حسناً جداً، ولكن ماذا عن...»

فقاطعتها بريتاني بحزم: «لا تهتمي بشأن برايان. فقط اذهبي.» وأثناء قولها ذاك، كان عقلها يعمل بسرعة. لقد كانت تنوي ترك برايان في فانكوفر بقدر ما يمكن وذلك لكي تبقي حياته طبيعية. فقد عانى طويلاً إلى درجة لم تجرؤ معها على أن تخبره بالسبب الحقيقي لرحلتها إلى كالغاري، فأن تقول له انها ذاهبة لمقابلة والده فهذا يجعله يطلب رؤيته، هو أيضاً. بينما سير الأمور لا ينبىء بالخير بالنسبة لجمع شمل الأب بالابن.

قالت للسيدة كاي: «لا بأس، اقطعي تذاكر لرحلة تتوقف بك في كالغاري، وسأكون أنا في المطار لاستقباله.»

أنهيا التفاصيل، وبعد مكالمتين قر الرأي على أن تأخذ السيدة كاي وبرايان طائرة أول الليل لرحلة اليوم التالي.

عندما انتهى كل شيء، سارت بريتاني نحو النافذة تنظر منها إلى الشارع المزدحم، كانت في الحقيقة مسرورة لحضور برايان إليها في كالغاري حيث أن كل يوم وكل دقيقة أصبحت ثمينة الآن. ارتجفت ولفت ذراعيها حولها وهي تدرك أن السبب في ذلك الفراغ الذي تحسّه في قلبها هو افتراقها عن ابنها لأول مرة.

لكنها طمأنت نفسها بأن ذلك لن يكون لمدة طويلة، مفكرة في ما حدث من تغيير للحظة مؤخراً. كل شيء قامت به في السبع سنوات الماضية قد صممته بعناية فائقة لكي ينتهي بأكبر قدر ممكن من النجاح، ولكن خلال يومين فقط أخذ شعور مزعج بفقدان السيطرة على الأمور، يتسلل إلى حياتها.

هزت رأسها وهي تلتقط محفظة يدها لتخرج من غرفة الفندق، قائلة: «هذا جنون، إذ أن ما يميزني هو القدرة على السيطرة.»

* * *

شعر لوك بوجود بريتاني في اللحظة التي خرج فيها من المصعد عند الظهر، لم يكن واثقاً مما إذا كان السبب هو رائحة عطرها أم هو حدس داخلي... كل ما في الأمر أنه عرف، كما يعرف اسمه، أنها في انتظاره.

وكان هذا صحيحاً، فقد وجدها تتبادل الحديث مع كارول وكأنهما صديقتان قديمتان.

قال بمرح وهو يومىء إلى بريتاني باختصار ثم يتوجه نحو كارول يأخذ رسائله: «صباح الخير. أنتن النساء تجدن دوماً مواضيعاً للحديث.»

فقالت كارول مازحة: «إننا نتحدث ضد الرجال، فنحن نحاول أن نضع قائمة بالأشياء التي يصلح لها الرجال، ولكننا لم نجد شيئاً يذكر.»

وضع لوك الرسائل من يده، ثم وضع يديه على حافة مكتبها، قائلاً: «وماذا عن صلاحيتنا لتوقيع شيكات الرواتب.»

فتألق وجه كارول بدهشة مازحة، بينما ضحك قبل أن يلتفت إلى بريتاني التي كانت تنظر إليهما ضاحكة هي أيضاً. وبين ثوبها الوردي المتألق وشعرها الداكن، بدت رائعة الجمال إلى درجة تخطف الأنفاس. نظر إليها طويلاً باعجاب قبل أن يتساءل عن السبب الذي جعلها هنا.

قال: «هل لك بدخول المكتب؟»

فوقفت قائلة: «كلا، في الواقع انني هنا لأنني جائعة.»

تردد لوك، ثم قال ببطء: «جائعة؟ لا بأس، هل لك إذن أن تأكلي شيئاً؟»

فقالت وهي تأخذ معطفها عن الكرسي وتتقدم ضاحكة: «لقد انتظرت هذه الدعوة طويلاً.»

سار معها نحو الباب وهو يهدد كارول بأن تدع المزاح جانباً وإلا فستندم من النتائج. وتبعتهما ضحكتها العالية إلى الردهة.

دخلت بريتاني المصعد وقد تألق وجهها بابتسامة كست وجهها بسعادة لم تكن هناك في اليوم السابق.

قال لها وهما يتوجهان إلى الردهة: «إنك في مزاج حسن هذا النهار. ماذا جرى؟»

جذبت ياقة معطفها حول أذنيها ودست يديها في جيبيها، بينما كان يتجه إلى أقرب مطعم، نظراً للهواء الشديد البرودة.

وقالت بمرح: «آه، ما أجمل أن يعود المرء إلى الشعور بالجوع.»

عبس لوك محاولاً أن يفهم ما تفكر فيه، ثم قال عندما

دخلا: «حسناً، إنني مسرور لأنك جائعة. ولكن هل هذا شيء غير عادي؟»

ناولته معطفها وهي تنظر إليه بهدوء، قائلة: «في الواقع، نعم إنه شيء غير عادي.» وتلاشى صوتها مع ابتسامتها. وخطر بباله فجأة أنه لا يعرف عن هذه المرأة سوى القليل جداً. إنها تدعي أنها حملت منه وأنها ربت له ابنه مواجهة محنة مرضه ما يقارب السبع سنوات، ومع ذلك فهو لا يدري أقل الأشياء عنها، مع أنه لن يتمكن من تغيير الماضي، فبإمكانه على الأقل، أن يزداد معرفة به.

قال للنادلة: «نريد مائدة قرب النافذة، من فضلك.» وعلى الفور أجلستهما وناولته قائمة الطعام قبل أن تتركهما.

قال لها وهو يتفحص القائمة: «أما زلت تحبين الأطعمة الايطالية؟»

وعندما لم تجب، رفع بصره إليها فرآها تعبث بالشوكة وعلى وجهها ابتسامة حزينة، ثم أجابت ببساطة: «نعم، ويدهشني أنك ما زلت تتذكر.»

فكر بأسى في أنه في الواقع، قد قال ذلك دون تفكير، وذكريات المرأة التي كانت ذات يوم تعني له الحياة كلها، تلك الذكريات تعود إلى ذهنه حية كما كانت.

قال بلهجة طبيعية: «كنت تفضلين دوماً التورتيليني مع الثوم، إلا إذا كان لديك عمل في اليوم التالي.»

ضحكت بريتاني بمرح وأحنت رأسها وقد صبغ الاحمرار وجهها: «آه، أتراني كنت صغيرة حمقاء بذلك الشكل؟» ضحكت مرة أخرى ثم رفعت رأسها: «لا أصدق انني كنت أقول ذلك، ما الذي جعلك تتذكر؟»

فقال وقد دهش بدوره إذ يتذكر شيئاً كهذا: «لا أدري.» اشتبكت أنظارهما لحظة قبل أن يرغم نظره على العودة إلى القائمة.

«ماذا تحبين أن تطلبي شراب؟»

فأجابت: «مياهاً معدنية، كالعادة.»

أغلق القائمة ووضعها جانباً، ثم انحنى يطوي ذراعيه على غطاء المائدة وهو يقول: «لقد نسيت هذا فقد مضت مدة طويلة.»

«لا بأس، ثمة أشياء كثيرة قد نسيناها نحن الاثنين.»

ساوره الشك في ذلك وهو ينظر إلى الفوطة على ركبتيها، فالذكريات ابتدأت تتدفق عائدة الآن، متزاحمة في رأسه بكل الصور والتفاصيل.

قال وهو يطرد الذكريات من ذهنه، ويركز اهتمامه على الحاضر: «أظن عليّ أن أخبرك بأنني ذهبت هذا الصباح لإجراء فحص الدم.»

أشرق وجه بريتاني وهتفت: «أحقاً؟ آه، يا لوك، كم أنا شاكرة لا أستطيع أن أصف لك كم يعني هذا لي.»

فقال: «سبق وقلت لك إنني سأفعل فهذا أمر بسيط.» وشعر بالارتياح عندما عادت النادلة تسألهما عن طلبهما، فعاد كل منهما إلى واقعه. إن علاقتهما الآن لا تتعدى الاحتياجات الطبية، ويجب أن تبقى كذلك.

لكنها قالت وما زالت تبتسم: «إنني أعلم أنه أمر بسيط، ولكنه يعني حياته، يا لوك.»

شعر بالخوف للجد الذي بدا في ابتسامتها. فقال: «تذكري يا بريتاني أن دمي قد لا يأتي ايجابياً. قد لا أكون ملائماً.»

اومأت برأسها: «لا أريد أن أفكر بهذا الشكل، إنني أشعر في أعماقي بأن نتيجة فحص دمك ستكون ايجابية.» واغرورقت عيناها بالدموع، فحولتهما بعيداً وهي تتابع: «إنها اللحظة التي كنت أنتظرها دوماً.»

فخفض لوك نظراته شاعراً بعدم الارتياح لاقتناع بريتاني البالغ بأن كل شيء سيكون على ما يرام فقط لأنه يساعدها في هذا، ولكن إذا كانت قد عانت كل ذلك العذاب، فمن هو لكي يقول بأن عليها أن تكون واقعية وتخفف من كل هذا التفاؤل؟

قال: «إنهم يقولون إن النتيجة ستظهر بعد ثلاثة أسابيع، فكيف سيتلاءم هذا مع خططك؟ هل ستعودين إلى فانكوفر للانتظار هناك؟»

عادت تنظر إليه: «آه، كلا لا أظن ذلك، لقد كنت أخذت إجازة غياب عن العمل وذلك لأنتهي من كل هذا؟»

سألها وهو يجد صعوبة في النطق باسم طفلها إذ كان ذلك يعني الإلفة التي لم يكن مهيئاً لها بعد، سألها قائلاً: «وماذا بشأن ابنك؟ ألن تشتاقي إليه؟»

بدا الذهول على وجه بريتاني، فتحت فمها لتتكلم ثم عادت فأقفلته ثانياً، ثم تنحنحت وقالت وهي تعبث بالمملحة: «طبعاً سأشتاق إليه، ولكنه متفهم للأمر. إنه ناضج جداً بالنسبة إلى سنه.»

أومأ لوك، وانتظر منها متابعة كلامها، ولكنها عندما لم تفعل، ساوره نوع من الشك، فهو يعلم أن الطفل هو كل شيء في حياتها، وكان حديثها أمس كله عنه تقريباً، ربما قد تقبلت فكرة أن إشراكه هو في الحديث عن صبيّ لم يعرفه

إلا أول أمس، ما زال مبكراً ثم ربما لم تعد تهتم بما عسى أن يقول أو يفكر، بعد أن نالت مرادها وأجرى فحص الدم. ربما كانت تنوي من الآن فصاعداً، حصر الحديث في الشأن الطبي.

ولأمر ما، شعر بمرارة لهذه الفكرة، ولكنه إراحة لذهنه، سمح بأن يتغير موضوع الحديث هذا، كما أرادت فسألها بشكل عفوي: «أي نوع من الطعام تريدين، الآن؟» وعاد يلتقط قائمة الطعام متفرساً فيها، رغم أنه كان يعلم مسبقاً ما تريده ولكنه كان يريد ان يقول شيئاً.

مالت إلى الأمام: «تورتيليني مع الثوم.» وارتسمت على فمها ابتسامة ماكرة.

فضحك وقد تذكر المرات الكثيرة التي كانت تبتسم له فيها بذلك الشكل، ذكرته بأيام مرحة ضاحكة سعيدة، مليئة بالحب والحياة، قال بهدوء: «لقد أمضينا الكثير من الأوقات السعيدة.»

سمعت بريتاني اللهجة المتأملة في صوته، فتلاشت ابتسامتها، كان يستعيد الماضي، ولكن قبل أن تغيّر الموضوع، عاد فسألها برقة: «ما الذي حدث؟ لماذا هجرتني بذلك الشكل؟»

جمدت في مكانها، وقد شعرت بأصابعها تبرد فجأة. وحولت نظراتها إلى النافذة وهي تقول بحرص: «إنك تعرف السبب.» قالت ذلك شاعرة بالكره للتوتر الذي بدا في صوتها، ولكن هذا الموضوع كانت تظن، بسذاجة، أن بإمكانها تجنبه وبالتالي تجاهله. وتابعت تقول: «كان من المستحيل أن ننسجم معاً.»

«بسبب والدك.»

لم يكن هذا سؤالاً، بل تصريحاً. وعبست هي لذكرى الرجل الذي سلب منها سعادتها مع لوك، ولحسن الحظ أن الزمن والبعاد قد حوّل غضبها إلى شفقة رغم الأسى الذي ما زالت تشعر به وهي ترى حياتها تنتهي بهذا المصير.

وسألته: «لو أنك كنت تعلم، حين تعارفنا من هو والدي، فهل كنت دعوتني إلى الخروج معك؟»

تردد لوك، ثم قال: «إنني غير واثق.»

حسناً، إنه صادق على الأقل، ومع ذلك فهذا الصدق قد آلمها، فما هي إلا بشر وكانت تفضل أن يكون الجواب المؤلم مغلفاً مخففاً قدر المستطاع.

قالت وهي ترغم نفسها على ابتسامة شاحبة: «حسناً، لم يعد هذا مهماً الآن، وكما يقال، كان ذلك هو الماضي، أما الآن فهو الحاضر.»

فقال: «ربما كان ذلك هو الماضي، ولكنني أريد أن أعلم. يمكنني أن أفهم السبب الذي جعلك تخفين عني حقيقة والدك وذلك حين تعارفنا لأول مرة، ولكن يا بريتاني لقد دامت علاقتنا شهوراً، فهل أثناء كل ذلك الوقت لم تجدي طريقة تخبرينني بها؟»

شعرت بالضيق يزداد في نفسها، لماذا لا يدع لوك كل هذه الأسئلة، لكي يستمتعا معاً في هذه الساعة؟

قالت بحدة لم تقصدها: «كلا، لم أجد طريقة لذلك.» ورفعت كوب الماء تجرع منه، ثم تعود فتقول: «أعني، فكر في الأمر، كيف يمكنك أن تقول لشخص تحبه بجنون، أن والدك ليس فقط متسكعاً، بل هو أيضاً أحد أسوأ أشقياء

المدينة سمعة.» وجاهدت في إبقاء صوتها هادئاً، ولكن عبثاً، فتابعت تقول: «كيف كان يمكنني أن أخبرك بذلك؟ خصوصاً ووالدك كان يتوقع أن يحظى بمركز محافظ المدينة.»

نظر إليها، لحظة طويلة، بعينين ثابتتين ثم قال: «لا أدري، ولكن كان عليك أن تحاولي، كل ما كنت أريده هو أن أفهمك.»

فازداد شعورها بالضيق: «إذن، لماذا اختفيت عن الأنظار عندما اعترفت لك في النهاية بشخصية والدي؟»

فرد عليها بحدة: «إنني لم أختف، كنت بحاجة إلى وقت أفكر فيه بما قلته لي...»

«بل أنت اختفيت. لم يعلم أحد أين كنت لا والدتك، ولا المكتب.»

«لقد اعتزلت لبعض الوقت، إنني...»

وقطع عليه كلامه صوت يقول: «ماذا تطلبان؟»

فأشاحت بريتاني وجهها إلى النافذة، بينما قال لوك للنادلة: «إثنان بورتيليني أحدهما بالثوم، من فضلك. ثم اثنان قهوة.»

وعندما ابتعدت النادلة، تنفس لوك بعمق ثم دار بنظراته حوله محاولاً استعادة سيطرته على أعصابه، كانت بقية الموائد بعيدة جداً عنهما ما يجعل من الصعب أن يسمع حديثهما أحد.

وبصمت، أخذ يفكر في ما قالته بريتاني لتوّها متسائلاً كيف أن حاجته تلك للاعتزال للتفكير قد فُسرت بأنها هجران. ألم تعرف جيداً طوال الأشهر التي أمضياها معاً،

أن ليس من عادته أن يرتجل مقرراته بالنسبة للأمور الهامة؟ وكيف كان لها أن تظن أنه هجرها حين كان كل ما يريده هو بعض الانفراد للتفكير؟

والتفت إليها يقول: «لم أغب سوى ثلاثة أيام.» كانت هي تمعن النظر في نقوش غطاء المائدة رافضة النظر إليه وهو يتابع قائلاً: «ألم تكوني تستطيعين الانتظار إلى حين عودتي قبل أن ترحلي إلى فانكوفر؟»

فأجابت على الفور: «كلا، لم يكن لديّ وقت للانتظار لكي أرى ما سيكون قرارك. كان عليّ أن أقرر أمري بنفسي.»

خطرت بباله فكرة جديدة توتر لها فكه، فقال: «هل كنت تعلمين أنك حامل عندما غادرت كالغاري؟»

بقيت صامتة. فعاد يقول بحزم: «هل كنت تعلمين؟»

عضت شفتها السفلى وقد قست ملامحها، ثم أجابت وهي ما زالت تتفحص نقوش غطاء المائدة: «نعم.»

فقال: «انظري إليّ.»

ترددت. ثم امتثلت لما يقول، وأخذت تبادله نظراته المصممة بمثلها.

«كنت تعلمين عندما غادرت كالغاري أنك كنت حاملاً، ومع ذلك لم تخبريني؟»

ومرة أخرى، سكتت برهة قبل أن تجيب: «كنت أعلم أنني حامل وذلك عندما أخبرتك عن أبي، لقد كنت أعلم أنني حامل ببرايان قبل أن تتوارى أنت لكي تفكر في قرار.»

فتصاعد غضب لوك، وكان كل ما بإمكانه أن يفعل هو منع نفسه من أن يخبط المائدة بقبضته. وبدلاً من ذلك حملق في بريتاني، المرأة التي اعترف الآن بأنه لم يعرفها قط في

الحقيقة، ثم سألها: «كيف أمكنك القيام بعمل كهذا؟ كيف ترحلين دون أن تخبريني؟»

تأوهت يائسة ثم خفضت نظراتها وهي تقول بقوة: «أرجوك، يا لوك لا أريد أن أتحدث في هذا الموضوع...»

فقاطعها يقول رافضاً قولها هذا: «حسناً، أنا أريد ذلك. أريد أن أعرف كل ما كان يجول في رأسك من أفكار لعينة وذلك حين قررت أن ليس عليّ أن أعلم بأنك حامل.»

فقالت بحدة: «أعطاني الحق في ذلك هويتي تلك، وسجل أبي الاجرامي.» شهقت قليلاً، وكان هذا أول علامات فقدانها لتوازنها: «إن حبي البالغ لك والذي جعلني لا أحتمل اقتران اسمك باسمي، هو الذي أعطاني هذا الحق.»

فتنهد من أعماقه وهو يهز برأسه شاعراً بصدغيه ينبضان ألماً. لقد أدرك، وهو يستوعب كل هذه المعلومات، أن ما علمه في اليومين الماضيين هو أن قدرته على مواجهة الصعاب كانت موضع اختبار. لقد اتضح له أن بريتاني كانت قد رأت في الهرب الحل الوحيد لمشاكلها، فإذا كانت تلك هي حالها، فمعنى هذا أنه كان قد تخلى عنها بشكل سيء.

فقال: «ربما كان غيابي ذاك مثيراً للشبهة...»

«جداً.»

«ولكن ذلك هي عادتي في معالجة الأمور.» فنظرت إليه بحدة، قائلة: «حسناً، ربما كان تصرفي ذاك هو عادتي في معالجة الأمور، أنا أيضاً.»

فتردد قليلاً، ثم قال: «ولكنني عدت على الأقل.»

فدعكت وجنتها المتوهجة بإصبعها، لماذا لوك لا يدع

هذا الحديث؟ لماذا يضايقها بإلحاحه بهذه الطريقة بينما لا بد أن يكون الماضي المؤلم شيئاً لا تريد هي التحدث عنه؟

وقالت يائسة: «وماذا كان قرارك حين عدت؟» سألته هذا وإن كانت تعلم الجواب مسبقاً.

سكت لحظة قبل أن يجيب بصوت خافت مخلص: «كنت قد قررت أن حبنا يستحق البقاء، كنت سأتغاضى عن كذبك وأحاول أن أتفهم موقفك.»

فشعرت بألم في قلبها، واندفعت تنظر إلى وجه لوك، ألمها إشارته إلى كذبها... وحطم قلبها، وهمست: «هل كنت عدت لإبلاغي قرارك النهائي؟»

كان حكمها عليه، في ذلك الحين، سيئاً إلى حد لا يصدق. كيف كانت بذلك الغباء؟ وتلهفت إلى معرفة أكثر من هذا، ولكن برودة ملامحه أخبرتها بأن تريح نفسها، وأنه لن يبوح بأسرار أخرى اليوم. ولكنه قال: «نعم، لقد عدت. عدت بالقرار الحسن النهائي.»

فسألته: «ومتى عدت؟» كانت تشعر بضيق بالغ فحياتها في هذه اللحظة، قد أخذت تنقلب رأساً على عقب.

فقال: «يبدو أنني وصلت بعد ذهابك بعدة ساعات.»

نظرت إليه وهو يرفع كوب الماء إلى فمه، وكانت رائحة قهوتها تثير الغثيان في نفسها.

ابتدأت تفكر بألم، إذن فقد كان عاد إليّ... كان قد عاد إليّ. وشعرت برغبة في تمديدها، فتمسك بيد لوك وذلك بكل قوتها، ملتمسة الدفء الذي كان يسودهما دوماً، ذات يوم، والثقة والحب.

لقد كان أعطاها كل شيء، ولكنها كانت عمياء عن رؤية

ذلك، مشاعره واهتمامه وتفهمه، كل ذلك كان قدمه لها، وكان كل ما عليها أن تفعل هو أن تبادله ذلك بشيء من التفهم، وعند ذلك كان بإمكانهما أن يكونا جالسين الآن في هذا المطعم كأي أسرة عادية. نعم، سيكون برايان كما هو الآن، في كفاحه بين الحياة والموت، ولكنهما كانا سيواجهان ذلك معاً.

نظرت إلى ملامح لوك الجامدة، وسخرت من نفسها لما اعتادت أن تفكر فيه من أنها متفوقة عليه. فقد كان جزءاً منها كما هو جزء من برايان. ولكن بحراً من عدم الثقة أبقاه بعيداً عنهما.

وأخذت تدعو، في أعماقها، لو عاد بهم الزمن إلى الوراء، لكي تتصرف بشكل مختلف...

وشعرت بصدمة لعبثية هذه التمنيات ما جعلها ترتجف، لن يكون ثمة عودة إلى الوراء، ومهما كانت الأمور التي كانت جمعتهما فيما مضى، هي ولوك، فقد ماتت الآن وستبقى كذلك إلى الأبد. كما أن عقابها لقلة ثقتها به سيصحبها إلى القبر عالمة بأنها هي التي دمرت سعادتهما.

ووضعت يديها المرتجفتين في حجرها حيث أخذت تدعكهما معاً ولكنهما بقيتا باردتين كالثلج.

وهمست: «لم أعلم بأنك كنت عدت إليّ.»

فأطلق ضحكة قصيرة: «يبدو عليك الدهشة. لماذا؟ هل كنت تظنين أنني عديم الاهتمام إلى ذلك الحد؟»

«كلا، ليس هذا ما قصدت، كل ما في الأمر هو أنه لم يخطر ببالي أنك... أنني...» تلعثمت وقد تملكها الاحباط ثم قالت: «يا ليتني علمت.»

فهز كتفيه دون اهتمام: «كان هذا ما حصلت عليه بسبب رحيلك بتلك السرعة، حتى أن والدك لم يعلم إلى أين ذهبت.»

فرفعت رأسها بحدة: «هل تكلمت معه؟»

«طبعاً فعلت، فقد كان منزلك هو أول مكان ذهبت إليه عند عودتي إلى المدينة.»

«وماذا قال لك؟»

هز كتفيه وأجاب: «لم يتكلم كثيراً. ولم يفدني بشيء.»

فسألته محاولة التشجع إزاء المزيد من الشعور بالمذلة إزاء مثل آخر عن طباع والدها الحقيرة، سألته: «هل كان متعسفاً نحوك؟»

فهز رأسه: «ليس جسدياً، ولكنه لم يكن مسروراً لاختفائك المفاجيء... فتفوّه ببعض الأشياء... لقد تجاهلته قدر الامكان، ثم تركته قبل أن أضربه...»

لأول مرة منذ سنوات، تشعر بريتاني بالغضب من والدها، وأجفلت وهي تتذكر ثورات والدها، والخوف من أنه سيقتلها في النهاية كما كان دوماً يتوعدها بذلك.

يبدو أن لوك قرأ ما في ذهنها. فشتم، ثم انحنى إلى الأمام على المائدة: «لماذا لم تخبريني ما الذي كان يحدث في بيتكم؟ لماذا لم تسمحي لي بأن أساعدك؟ بل لماذا بقيت معه ولم تتركيه قبل ذلك؟»

«لقد كان والدي ولم تكن والدتي تهتم بشكواي... لم يكن لي مكان آخر ألجأ إليه، كان كل ما لدي. لم أكن أعرف كيف تكون الأسرة الحقيقية إلى أن تعرفت إلى أسرتك.»

فسألها والأسى يغلف كلماته: «لماذا إذن لم تدعينا نساعدك؟ بل لماذا لم تمنحينا الفرصة لكي نفهم وضعك؟»

فاغرورقت عينا بريتاني بالدموع، وقالت برقة: «أواه، يا لوك. كنت أريد ذلك... كنت أريده حقاً. ولكن في كل مرة ذهبت فيها إلى منزل أمك كان الخوف... يتملكني.»

فمدّ لوك يده يريد الامساك بيدها مواسياً، ولكن النادلة جاءت في هذه اللحظة بأطباق الطعام، ما جعله يسحب يده. وشتمت بريتاني في سرها هذه الفتاة التي لم تحضر إلا في اللحظة التي كانت فيها في أشدّ الحاجة إلى عطفه وتفهمه.

عندما وضعت الفتاة الطعام متمنية لهما طعاماً مريئاً، شكرها بجفاء وكأنه هو أيضاً شعر بالضيق لمقاطعتها لهما. تناول الشوكة وهو يقول دون حماسة: «تفضلي.»

فابتدأت بريتاني تأكل، دون شهية، قطعاً صغيرة من اللحم، محركة بقية الطعام في أنحاء الطبق لكي يبدو أنها تأكل حقاً ما طلبته من طعام متبّل.

وإذ رآها لوك تعبث بالطعام، سألها: «ماذا حدث؟»

لم يكن هو نفسه، يشعر بالجوع فقد كان حديثهما ترك المرارة في فمه. وأضاف يقول: «هل الثوم هو السبب؟ هل عليك أن تذهبي إلى العمل غداً؟» قال ذلك مازحاً يريد بذلك تلطيف الجوّ.

وتناولت هي لقمة صغيرة أخذت تمضغها.

كانت تبدو وكأنها تتناول آخر وجبة لها قبل أن تساق إلى الاعدام. وتساءل لوك عن الفائدة في الاستمرار في مهزلة الغداء هذه. فهو لم يكن يدرك كم من المسائل المعلقة ما زالت بينهما، ولا الألم الذي سيصحب اظهارها. ومع أنه كان يعلم الحاجة إلى معالجتها، الا انه لم يكن واثقاً من أن هذا المكان والزمان هو صالح لهذا.

سألها محاولاً تغيير الموضوع: «هل سبق وأخبرتك أن والدي في الكويت؟»

«نعم، هل يذهب إلى هناك كثيراً؟»

«عدة مرات في السنة، ليس الكويت دوماً، ولكن في كل بلد فيها مشاريع بترولية جديدة.»

فازدردت بريتاني ريقها وهي تضيف السكر إلى قهوتها: «إنه رجل طيب. هل تقدم إلى وظيفة محافظ؟»

«كلا، فقد قرر أن لا يفعل، فهو يريد تكريس حياته لشركته، كما أنه لم يكن يريد ترك الأسفار.»

وتذكر ردة الفعل لدى أمه حين علمت أن والد لوك يفكر في ترك عمله والعودة إلى الوطن ما يجعله يحضر العشاء كل ليلة في منزله، ما جعل الغم يتملكها.

فتابع يقول: «أما والدتي فقد كان رأيها هو أن يبقى في العمل الذي يحسنه... خصوصاً وأن العمل الذي يحسنه كان يبقيه بعيداً عنها.»

هذا، على الأقل جعل بريتاني تبتسم: «أنا لا أفهم هذا. فهو في غاية الظرف. إنه...» وأخذت تحدق في قهوتها مفكرة: «كان يعاملني معاملة خاصة.»

وكان لوك يعلم أن والديه كلاهما كانا يحبان بريتاني جداً.

فقال: «ذلك لأنهما كانا يدركان مبلغ حبي لك. ولكنهما، مع كل الرفاهية التي كانا يعيشان فيها لم يكن من عادتهما إصدار الأحكام على الآخرين. ألم تدركي ذلك؟»

اهتزت يد بريتاني التي كانت تمسك بالفنجان، فوضعته من يدها فجأة وهي تقول: «أظنني كنت مشغولة جداً بالقلق

لأي شوكة أستعملها لكل نوع من الطعام، عن أن ألاحظ مبلغ طيبتهما.»

«ماذا تعنين؟»

«أعني أنني بالنسبة لعادات المجتمع، لم أكن أميّز رأسي من قدمي. فقد كنت أشعر بالغباء والجهل كلما كنت معهما.»

فسألها غير مصدق: «هل هذا كان السبب في كل ذلك؟»

من غير المعقول أنها تخلت عن كل ما كان بينها وبينه لمجرد أنها لم تكن تعرف آداب المائدة. ولكنها أجابته: «كلا، لم يكن هذا كل ما في الأمر! كان يتضمن كل شيء، السكاكين، الشوك، الأحاديث حول الأمور العادية، عن محلات الأزياء الفاخرة.» نظرت إليه بعينين تتوسلان إليه أن يفهم ما كانت تعانيه: «لقد كنت أشتري ملابسي من دكاكين الملابس المستعملة وذلك بالنقود التي كنت اخفيها من وجه والدي.»

وجعل عنفها في الحديث لوك يفكر منتبهاً. هذا الحديث كان ينبغي أن يدور بينهما منذ سبع سنوات عندما كانت مشاكل بريتاني موجودة ويمكن معالجتها، وليس الآن بعد أن تأصلت في نفسها وأصبحت جزءاً من شخصيتها.

فقال بصدق: «كنت دوماً أراك تبدين في أحسن مظهر. لم أكن أهتم أبداً من أين تشترين ملابسك. وأنا واثق من أن والدتي لم تكن لتهتم بذلك هي أيضاً.»

فألقت بريتاني بشوكتها في الصحن وأبعدته جانباً: «ربما ما كنت لتهتم، ولكنني أنا كنت أهتم. كنت أريد أن أكون أفضل مما كنت، فألبس بشكل أفضل، وأتعلم أكثر. كنت أريد...» وحوّلت نظراتها إلى النافذة تحدق في المشاة

في الشارع: «كنت أظن أن والدك سيتقدم لمركز المحافظ. لم أستطع أن أتصور قط ماذا كان مدير حملته الانتخابية سيقول لو أنه عرف بأنك متزوج من فتاة مثلي.»

شعر لوك بغضب بريتاني فسكت سامحاً لها بأن تفرغ من نفسها كل ذلك القنوط الذي حملته طوال تلك السنوات. وبعد ذلك بلحظات، عادت تنظر إليه بعينين ضيقتين مظلمتين: «وبعد، ربما كنت ترغب في التجاوز عما كان والدي يفعل، ولكن هناك كثيراً من الناس يتذكرون كيف سرق لهم أموال تقاعدهم، ودفع بامرأة عجوز إلى الانتحار.»

الفصل الرابع

«ما الذي تعنيه بقولك انها غادرت الفندق.»

«افحص السجل جيداً. لقد كانت تقيم في الغرفة رقم (٩٠٦).

تصلب جسم لوك وهو يقول هذا وامسك بسماعة الهاتف.

فأجاب موظف الاستقبال في الفندق بهدوء: «نعم يا سيدي. إنني أعلم هذا. ولكنها خرجت اليوم حوالي الظهر.»

«هل تركت خلفها عنواناً؟»

«كلا يا سيدي. إنها لم تفعل. وعلى كل حال، سآخذ عنوانك واسمك في حالة اتصلت وسألت عن رسالة.»

فقال لوك متوتراً: «كلا، شكراً.»

وضع السماعة بعنف وأخذ يمر بيده خلال شعره. إلى اين ذهبت بريتاني هذه المرة؟ ولماذا لم تخبره بأنها ستخرج من الفندق؟ استدار إلى مكتبه يحدق في تقويمه السنوي. الأحد الخامس من الشهر. لقد مضى يومان على تناولهما الغداء معاً. ولم يكن الآن أكثر هدوءاً مما كان عليه عندما أنزلها عند فندقها. لقد انتهى ذلك الغداء فجأة وبشكل غير سار عندما نهضت وألقت على المائدة عشرين دولاراً قبل أن تترك المطعم بسرعة. ولحق بها لوك بنقودها، ولكن لم يفلح في إقناعها بأن هناك الكثير من الأمور التي يجب ان يتباحثا فيها.

لقد قبل هذا، باعتبار نوع الحديث الذي كان بينهما،

ولكنه لم يسمح لها بأخذ سيارة توصلها إلى الفندق. ومع أن المسافة كانت قصيرة، إلا أنه أصر على أن يوصلها بنفسه، آملاً بإقامة حديث مرح بينهما، ولكن هذا لم يحدث، وتركها عند باب الفندق بعد أن وعدته بالاتصال به فيما بعد.

لكنها لم تتصل به، وها هي ذي تختفي عن الأنظار... مرة أخرى.

«تباً لذلك.» أخذ يشتم شاعراً بالكراهية لقدرتها على جعله يشعر بالنقص. لقد شعر وهي تستلم مقاليد الأمور بيدها بهذا الشكل، شعر بأنه قد انحدر إلى مجرد دخيل تافه، ورغم أن عدداً من الاسباب التي تفسر معنى تصرفاتها هذا، قد اندفع إلى ذهنه، إلا أنه لم يكن أي منها عقلانياً. لماذا تترك الفندق دون عنوان لها في الوقت الذي كان ثمة كثير من الأحداث الهامة؟ أتراها تتوقع منه بأن يعطي مخ العظم، إذا كان دمه ملائماً، هكذا ببساطة دون أن يتقابلا مرة أخرى؟ وهل هذا شيء عملي بالنسبة إلى تبادل المعلومات الطبية؟ ثم من أعطاها الحق في مثل هذا التصرف؟

وأخذ يتساءل كم يوجد في دليل هاتف فانكوفر من اسماء سلسلة فنادق هدسون، مفترضاً، بطبيعة الحال، أن اسمها لا بد موجود في أحدها، مفترضاً طبعاً، أنها عادت إلى فانكوفر. وحسب ما يعرفه عنها، فهي قد تستقر في تورنتو دون أي نية في رؤيته مرة أخرى.

نهض عن كرسيه مزمجراً بغضب وهو يلعن اليوم الذي دخلت بريتاني فيه حياته، إنه منذ ذلك الحين، لم يعد كما كان وربما لن يعود أبداً.

وكيف يمكن ذلك، باعتبار...

* * *

«ماما... أريد مزيداً من الورق.»

فابتسمت بريتاني لابنها، وهي تشعر من الدفء الذي في قلبها بأنها فعلت عين الصواب حين أحضرته إلى كالغاري. ففي المطار، أول أمس، انفجرت بالبكاء عندما خرج من البوابة مع السيدة كاري، وكأنها طفلة في الثالثة قد وجدت دميتها الضائعة، فاحتضنته بين ذراعيها تضمه ضماً شديداً. وعندما تناولت فنجان قهوة مع السيدة كاي، خفف ذلك عنها كل ما كان يعتمل في نفسها بشأن صحة برايان،وبعد ذلك بساعة كانت تدس في يد المرأة القميص القطني الذي كانت اشترته لها ثم دفعتها نحو بوابة الخروج مع الهدية التي كانت قد ابتاعتها لأجل ابنتها المريضة.

وقالت تجيب ابنها: «هناك المزيد من الورق في غرفة النوم.وهي في ملف على المنضدة.»

سألها عابساً: «لماذا وضعته هناك؟»

فقالت مازحة: «لكي أغيظك.» وكانت في هذه الاثناء تفتح حقيبة المعلبات التي كانا أحضراها من الفندق إلى الشقة.

عندما انتهت من وضعها في مكانها، عادت إلى غرفة الجلوس حاملة فنجاناً من القهوة، شاكرة حظها لعثورها على شقة مفروشة بهذه السرعة. ووضعت فنجانها على المنضدة الصغيرة، ثم جلست على الأريكة الخضراء ثانية ساقيها تحتها.

إن العثور على شقة كهذه ما كان يحدث صدفة، ولم تكن واثقة من أنها عثرت عليها دون واسطة من مدير فندق كالغاري والذي كان صديقاً لرئيسها في فانكوفر. ربما كان عليها أن تنقل حاجياتها أمس، ولكنها كانت من الفرح بقدوم إبنها بحيث لم تستطع أن تركز أفكارها على حزم الأمتعة.

«ماما، أريد مزيداً من الصمغ وكذلك صوراً لاصقة.»

«آه، نعم. ولما كل هذا؟»

«لأنني أرسم صورة السيدة كاي. لأنها قالت لي ان علي أن لا أنساها لأنها رحلت.»

فكرت بريتاني في الاتصال بالسيدة كاي وسؤالها عن حالها وعن صحة ابنتها.

وقالت تخاطب برايان: «حسناً، هذه فكرة جميلة. اسمع، إن علي الاتصال هاتفياً، لماذا لا تذهب إلى الحمام وتغسل يديك ووجهك ثم آخذك إلى متجر الالعاب الذي رأيناه في البناية التي بجانبنا؟ أظن لديهم هناك صمغ وصور لاصقة.»

فأومأ برأسه قائلاً: «آه، نعم. إنني سأعود حالاً يا كاي.»

فقالت ضاحكة: «لا تسرع.» تنفست بعمق عندما ركض إلى الردهة، وأخذت تتساءل كيف أمكنها أن تفكر أن بإمكانها مفارقته أكثر من يوم أو اثنين. لقد كان حياتها كلها، وكانت تريده قريباً منها لكي تشعر بأن مشاكلهما ستستحيل إلى نصر، في النهاية، وعندما سمعت صوت جريان الماء من الصنبور، تناولت سماعة الهاتف وأدارت الأرقام التي تحفظها عن ظهر قلب... إنه رقم هاتف منزل

لوك. وإذ ألقت نظرة على ساعتها، رأت أنها الرابعة ولا بد أنه قد عاد إلى البيت الآن. كانت قد حاولت الاتصال به قبل الآن، ولكن عندما لم تحظ إلا بآلة التسجيل، صممت على عدم ترك الرسالة له، على أن تتصل به فيما بعد.

تصاعد الرنين أربع مرات قبل أن يجيب التسجيل: «آسف لعدم قدرتي على المجيء إلى الهاتف الآن، ولكن إذا تركت اسمك...»

فأعادت بريتاني السماعة إلى مكانها وهي تتنهد مفكرة. أين يمكن أن يكون لوك بعد ظهر الأحد؟ وضحكت بأسى. بل أين لا يمكن أن يكون لوك فيه بعد ظهر الأحد؟ فإذا لم تكن الأمور تغيرت، فهو ما زال لديه مجموعة من الأصدقاء يدعونه على الدوام للاشتراك معهم في نشاطات متنوعة.

تنهدت مفكرة مرة أخرى وهي تنظر إلى برايان قادماً إليها من الردهة، وقد احمر وجهه من الفرك وابتل شعره قليلاً. فقد كان انتهى من الغسل بسرعة قياسية على غير عادته ما جعلها تسر لعدم تمكنها من الاتصال بلوك وإلا فالمقاطعة ما كانت مستحبة وإن كانت من برايان.

ضحكت وهو يجذبها لكي تقف، ثم يجرها إلى الباب لا بأس، فغداً سيكون لديها وقت كاف للاتصال وما في ذهنها يمكنه الانتظار يوماً آخر.

• • •

«كارول، لقد كنت أخبرتك أنني لا أريد مقاطعة...»

«إنها بريتاني هدسون، وهي تسأل إن كان...»

«أي خط؟»

«ثلاثة.»

«شكراً.» تنفس بعمق وهو يحاول أن يكبح جماح ما كان يشعر به من احباط يقارب حد الغضب. كان ذلك بعد ظهر الاثنين، وقد ضيع فترة الصباح في التساؤل عما إذا كانت ستتصل به. هذا إذا كانت ستتصل حقاً.

اختطف السماعة: «بريتاني، أين كنت؟»

وأدرك من التردد في الناحية الأخرى من الهاتف أن ليس لديه الحق في أن يكلمها بهذه اللهجة.

فأضاف: «إنني آسف. لم أقصد أن أبدو خشناً... هل أنت بخير؟»

أجابت بشيء من الدهشة: «إنني بخير تماماً، وأنا آسفة إذ لم أعلمك مسبقاً بمغادرتي الفندق، فقد كان لدي الكثير مما يشغلني...»

فقال بلهجة الاعتذار: «هذا غير مهم.» فقد هدأ صوتها من أعصابه، وشعر بالتوتر الذي كان تملكه أثناء الأيام السابقة، شعر به يتبدد.

سألته وقد بدا الأمل في صوتها: «هل تريدني لشيء ما؟»

فكر بذلك ثم قرر أنه بحاجة إليها، وإن لم يكن واثقاً من مقدار ذلك. ولكنه قال يخفي حيرته: «كلا، كل ما في الأمر أنني كنت أريد أن أعلم إلى أين ذهبت وذلك في حالة... في حالة لدي سؤال طبي.»

«آه، حسناً، يمكنني أن أعطيك رقمي هنا، إذا شئت.»

«أين تعنين بكلمة هنا؟ هل عدت إلى فانكوفر؟»

فقالت ضاحكة: «كلا. كلا بالطبع، وإنما استأجرت شقة أثناء عطلة نهاية الاسبوع. وهي على تلة مشرفة على النهر. وهي، كما تعلم، من نوع الأماكن التي يستعملها رجال الأعمال عندما يأتون إلى المدينة للمكوث بعض الوقت.»

حاول هو أن يستمع إلى وصفها للشقة، ولكن ذهنه لم يكن يستوعب سوى أنه أصبح يعلم الآن مكان بريتاني، وأن بإمكانه الوصول إليها متى شاء. ليس ذلك لأنه كان يريد ذلك، كما قال لنفسه. كل اهتمامه كان منحصراً في سلامتها وذلك عندما لم يكن قادراً على العثور عليها.

سألها حين انتهت من وصف شقتها: «ما هو رقم هاتفك الجديد؟» وبعد أن دونه في دليله، عاد يسألها: «وماذا تنوين عمله الآن؟»

فكرت لحظة قبل أن تقول: «إنني في الواقع، كنت أتساءل عما إذا كنت تحب أن نتناول العشاء معاً هذه الليلة؟»

فقال دون تفكير: «بكل تأكيد. سأحجز مائدة في المطعم الذي قرب بحيرة بونا فيستا...»

فقالت بسرعة: «كلا. كنت أفكر في أنك قد تأتي إلى هنا. إنني لست أمهر طاهية، ولكن بإمكاني أن أعد شيئاً بسيطاً.»

قطب جبينه قائلاً: «هذا ليس ضرورياً. إنني سأتصل هاتفياً و...»

فقاطعته بحزم: «أرجوك، يا لوك. إنني حقاً أريدك أن تأتي إلى هنا.»

فتساءل عن السبب الذي يجعل ذهابه إلى شقتها

ضرورياً. أتراها تخطط لشيء غير العشاء؟ لشيء عنهما هما الاثنين ولكنه عندما فكر في ذلك، استبعده. فهذا ليس من طبعها، وليس ثمة فائدة منه، فعودة العلاقة الزوجية بينهما لا يريد ان يدخلها في أي قرار قد يتخذه بالنسبة لحياتهما وهي تعلم ذلك. هذا بالاضافة إلى أنه أجرى فحص الدم. فماذا ستربح من وراء ذلك أكثر من هذا؟ إلا إذا كانت تفكر في تحليل الأمور بينهما لتتأكد من أنه سيقبل بنقل مخ العظم.

في أعماقه، كان لوك يعلم أنه سيذهب. ذلك لأن بريتاني لا يمكن أن تتصرف بمثل هذه الوضاعة. إنما لا بد لهذا السؤال من جواب. فإذا أرادت أن تقترح قضاء المساء معاً، ماذا سيفعل؟

وأخيراً قرر أن هذا موضوع قابل للأخذ والرد. ولكنه في أعماقه، كان يعلم بأنها ستكون ورطة لن تحدث. وبسرعة، رأى أن كل ما كانت بريتاني تعده هو العشاء، والذي كان شيئاً حسناً ما دام يمكنه بواسطته أن يراها مرة أخرى، حتى وإن كان هذا لمدة ساعة. وهذا يجعله يتأكد بنفسه من أنها في مكان آمن محترم. وهو كان سيقوم بنفس الشيء تجاه أي من أصدقائه.

قال لها: «بالتأكيد، إذا كان هذا ما تريدينه.»

فقالت وهي تتنهد بارتياح: «بالضبط. وشكراً. ما قولك في جعل الموعد الخامسة والنصف؟»

فنظر إلى كومة الأوراق على مكتبه، ثم أدرك أن هذا الموعد لا يناسبه مطلقاً. ليس فقط لأنه لم يمد إلى هذه الأوراق يداً هذا النهار، وإنما أيضاً لم يوقع بالموافقة على

أي من العروض الأخرى التي يقوم فيها مدراؤه المنفذون. ومن دون موافقته يتوقف تقدم العمل.

قال لها: «الخامسة والنصف لا يناسبني. ما رأيك في أن يكون ذلك الساعة السابعة. السابعة والربع.»

«هذا حسن جداً سيكون الطعام جاهزاً.»

انتهت المكالمة. واتكأ لوك بظهره إلى الخلف باسترخاء لسماعه صوت بريتاني. تنهد بعمق وهو يتأمل فنجان قهوته البارد، ثم أرغم نفسه على أخذ فرصة يرتاح فيها قليلاً.

لم يكن هذا يعني أن العمل بإمكانه أن ينتظر ولو خمس دقائق. ذلك أن نظرة سريعة إلى مكتبه تجعله يذكر أنه لم يقم بسوى القليل أثناء اليومين والنصف الماضيين، رغم وجوده أكثر الوقت في مكتبه. ذلك أنه في كل مرة كان يحاول فيها اتمام العمل، تحتل ذهنه صورة بريتاني وهو يتساءل أين عسى أن تكون ومع من.

ما هذا التأثير الذي ما زال لبريتاني عليه؟ تساءل عن ذلك مجفلاً وهو يجرع آخر ما في فنجانه ويضعه جانباً، بعيداً عن أكوام الأوراق الهامة التي تحاول جاهدة جذب اهتمامه. من خمسة أيام فقط، كانت حياته تسير على ما يرام وبكل صفاء.

• • •

عندما حلت السابعة والنصف، كانت بريتاني قد وصلت إلى حالة من انهاك الأعصاب جعلت يداها ترتجفان كأوراق شجرة في مهب الريح.

كانت المائدة جاهزة، والدجاج الذي أمضت عصر اليوم

في إعداده، تعبق رائحته الشهية. وكانت الشقة بالغة النظافة والترتيب. وكل ما يتعلق ببرايان أبعد عن الأنظار ووضع في غرفته حيث كان ينام بعد أمسية حافلة وعشاء من الهمبرغر.

تفحصت مظهرها في مرآة الردهة وذلك للمرة العاشرة، راجية أن تكون نتيجة ما كانت تهم بالقيام به، هي الصواب، لأنها إذا لم تكن كذلك...

ورن جرس الباب بحدة قطعت أفكارها وجعلتها تقفز من مكانها رغم علمها المسبق بأن الطارق هو لوك. ومرت بيدها تسوّي من كنزتها وهي تجيل نظراتها حولها، تذكر نفسها بأنها هي التي رتبت أمر هذه الأمسية. وأن لوك إذا كان هنا فهذا بناء على دعوتها له، كما...

لقد كانت تعلم أن الأمر سيكون الآن وإلا فلن يكون أبداً.

ابتسمت وهي تفتح الباب للوك مرحبة به. ووقفت جانباً تدعوه للدخول، قائلة: «إن مواعيدك مضبوطة، كالعادة.»

«نعم، حسناً، لا أحب أن أجعل مضيفتي تنتظرني حين يكون هناك عشاء.» وكان أثناء ذلك يناولها باقة من الأزهار: «هذه لك تعبر عن شكري.»

فرفعتها بريتاني إلى أنفها تتشمم شذاها العطر: «ما أجمل هذا، ولكنك لم تذق الطعام بعد. فقد تفكر، بعد ذلك، في استعادتها؟»

فقال وهو يخلع سترته: «إنها ليست لهذه الليلة، فقط.» وأخذت هي السترة تعلقها ثم تبعها إلى غرفة الجلوس وهو يتابع قائلاً: «إنها أيضاً لأجل يوم الجمعة، فقد اندفعت

بأسئلتي ما سببت لك الاستياء. وأنا آسف. وهذه الأزهار تعبر عن شكري لك إذ لم يمنعك غضبك من الاتصال بي اليوم.»

فالتقت عينا بريتاني بعينيه وقرأت فيهما الاخلاص، وشعرت بقلبها يخفق وهي تفكر في عملية الاحتيال التي توسلت بها إلى احضاره إلى هنا الليلة. فقد كان في ذهنه أن هذه الدعوة ليست سوى تعبير عن صداقة، بينما الحقيقة أنها خطة وضعتها للجمع بين برايان وأبيه.

عندما غادرت فانكوفر الاسبوع الماضي، كان كل ما تبغيه هو أن تحمل لوك على القبول باجراء فحص الدم.

أما أن تجعله يستقبل برايان بذراعين مفتوحتين، فهذا ما لم تجرؤ على تمنيه، رغم اعترافها بأنها كانت ترجو أنه، على الأقل، سيهتم برؤية كيف يبدو إبنه.

ولكنه لم يظهر أي اهتمام بذلك، وأثناء اليومين الماضيين ابتدأ القلق يتملكها مكان التفاؤل. كانت تريد من لوك أن يتقبل برايان. كانت تريدهما أن يتقابلا. تباً لذلك، كانت تريد إنهاء هذا الكابوس الذي دام طويلاً.

ثم عادت تفكر عندما تبدد شيء من شجاعتها، بأن هناك طرق صحيحة لانجاز هذا الأمر. وكلما ازدادت تفكيراً في هذا الأمر، كلما ازداد اقتناعها بأن هذه الطريقة ليست هي الصائبة.

ربما إذا هي أخبرته بحيلتها هذه الآن، سيجعله ذلك يكرهها لمدة أشهر. ولكن، لو أن برايان بقي راقداً الثلاث ساعات القادمة دون انقطاع، لما كان عليها أن تعترف له

بالأمر وبالتالي لن يكرهها. ولكن، يا ليت الأرض تنفتح ثم تبتلع كل...

«هل تريدين؟»

فانتبهت إلى أنه يخاطبها، فسألته: «أريد ماذا؟»

«أتريدين مساعدة في اعداد العشاء؟ يمكنني أن أحرك شيئاً أو أعد المائدة.»

إعداد المائدة؟ من حسن الحظ أن برايان تناول عشاءه مبكراً فهي بالتالي، ليس عليها أن تعد المائدة لثلاثة.

وقالت بسرعة: «كلا. إجلس أنت فقط وسأهتم أنا بكل شيء.»

دخلت إلى المطبخ تبحث عن زهرية. وعندما لم تجد، وضعت الزهور في ابريق قهوة. كانت الأزهار خليطاً من القرنفل والزنبق وهي زهورها المفضلة على الدوام. وتساءلت عما إذا كان لوك ما زال يتذكر هذا.

لكنها تمتمت تحدث نفسها أن لا وقت لديها لمثل هذا النوع من التفكير. فثمة أمور أكثر أهمية من التفكير في الزهور. أمور مثل كيف تأتي على ذكر موضوع برايان وأنه الآن راقد في غرفته في آخر الردهة.

خفق قلبها، ولكنها نحت اضطرابها جانباً، واستقامت جيداً قبل أن تعود إلى غرفة الجلوس حاملة الأزهار وهي تقول للوك قبل أن تضعها على منضدة هناك: «إنها رائعة الجمال. شكراً لك.»

فقال: «لا بأس. تبدين حسنة المظهر للغاية هذه الليلة.»

أجابت وهي تجلس على طرف الأريكة حيث يجلس هو: «شكراً لك مرة أخرى.» وحاولت أن تبدو طبيعية.

كانت أذناها مرهفتين لأقل صوت من آخر الردهة ما جعل من الصعب عليها التركيز وهي تتابع قائلة: «وكيف كان يومك هذا؟ أتراني قطعت عليك اجتماعاً عندما اتصلت بك؟»

«كلا أبداً. فقد كنت أعمل في مكتبي. كنت طلبت من كارول أن توقف عني المكالمات لكي أنتهي من عملي الأساسي. وبعد أن أنتهي من ذلك الجزء، يمكنني أن أسلمه إلى بقية الموظفين للعمل به.» تنفس بعمق وكأنه متعب: «حاولت أن أنهيه أمس، ولكن مزاجي لم يكن صالحاً للعمل.»

«هل كنت في المكتب أمس؟»

«نعم. فالعادة أني أنهي ما لدي من العمل في عطلة نهاية الاسبوع أكثر منه في بقية الأيام. ربما لأن كارول ليست هناك لتعكر عليّ هدوئي.» وضحك.

ضحكت بريتاني هي الأخرى، ثم سألته: «أتريد أن تشرب شيئاً؟ قهوة؟ مياهاً معدنية؟»

«مياهاً معدنية من فضلك.»

نهضت بريتاني مسرورة بهذه المهمة، ثم توارت في المطبخ. ذلك أنها عندما وجدت نفسها غير قادرة على العثور على الكلمات التي تخبر لوك بها عن حضور برايان إلى كالغاري، أصبح من الصعب عليها الجلوس في مكان واحد.

عندما عادت إليه بالزجاجة المبردة، لم يكن على الأريكة، فقد كان وقف ليتفرج على رسوم المناظر على الجدار.

قال لها: «شكراً. إنه مكان جميل.» ونظر نحو الردهة: «غرفتا نوم؟»

أجابت وهي تجلس: «نعم.»

فأومأ وهو يعود إلى الأريكة فجلس ثم مد ساقيه يريحهما.

«هل سمعت شيئاً من الطبيب مؤخراً؟» سألته ذلك وهي تعلم أن الجواب ما زال مبكراً. ولكنها كانت تحاول تبديد الألم الذي أخذت تشعر به وهي تتذكر أيامهما الماضية الرائعة.

«كلا، فأنا لا أتوقع ذلك قبل مضي مدة طويلة.»

«هذا ما أظنه.»

سألها بدوره: «أتراك سمعت شيئاً؟»

«كلا كلا. لم أسمع.»

ساد الجو فجأة نوع من عدم الارتياح. ولم تعرف كيف تبدأ الحديث.

ثم اندفعت تقول بشكل مفاجيء: «إن برايان يتقدم بشكل حسن، وهو يعطى عقاراً لتخفيف الألم للمرة الثانية.» ولم يقل لوك شيئاً ولكن الاهتمام بدا عليه، ما جعلها تتابع: «وهذا يعني أنهم حاولوا القضاء على السرطان بالمواد الكيميائية وحدها. ولكن عندما عاد المرض، كان عليهم أن يكرروا المحاولة.»

فأومأ لوك قائلاً: «ولهذا السبب هم بحاجة إلى نقل مخ العظم.»

«هذا صحيح. ولهذا... بحثنا عنك لكي نطلب منك التبرع له بذلك.»

اشتدت نظرته وهو يقول: «إنك تستمرين في الحديث عن ذلك وكأن الأمر قد انتهى. تذكري أن دمي قد لا...»

فقاطعته بحزم: «بل هو كذلك. ليس لدي شك في هذا. إنك ستكون ملائماً، وسيتبدد هذا الكابوس نهائياً.»

أخذ ينظر إلى الثقة العمياء التي كست ملامح بريتاني بالتصميم وتمنى لأجلها، أن يكون كلامها صحيحاً. لقد كره التفكير في ما قد يحدث لها لو أن دمه لم يكن ملائماً.

هذه الليلة مثلاً، رغم حسن مظهرها، كانت تبدو متوترة للغاية. كانت تركت شعرها مسرحاً بالطريقة التي يحبها، فأخذت خصلاته تتماوج حول عنقها.

كما كانت متحفظة في تصرفاتها باردة المظهر ما عدا عينيها. فقد كانتا متيقظتين هذه الليلة، ذاهلتين وعاجزتين عن التركيز، وكأنها كانت تفكر في أشياء أخرى حين تتحدث إليه. كان توترها هذا نتيجة خوفها من أنها، وهي تركز كل آمالها على شخص واحد دون أن تكون هناك خطة احتياطية في حالة الفشل، هذا التوتر لا بد أنه بمثابة الكابوس بالنسبة إليها.

اعتذرت إليه لكي تذهب إلى المطبخ، بينما جلس هو يفكر في ما عليه عمله فيما لو جاءت نتيجة فحص الدم سلبية. لقد كان اهتمامه كله منصباً على الأمور الطبية هذه، وإن كان هذا لا يعني عدم الاهتمام منه بالمسائل الأخرى بالنسبة لبرايان.

ولكن ثلاثة أسابيع قبل ظهور نتيجة الفحص ليست بالمدة الطويلة وعندما تأتي، إيجابية كانت أم سلبية، سيعلم حينذاك أي نوع من المشاعر سيتملكه.

كان ما يزال جزء منه يتساءل عما إذا كان برايان هو ابنه حقاً. لقد وثق بها مرة من قبل، ولكنها خذلت ثقته تلك. ولكنها إذا كانت تكذب الآن بالنسبة لبرايان، فلماذا لجأت إليه لفحص الدم؟ هل من الممكن أن يبلغ بها اليأس إلى حد يجعلها تطلب ذلك من أي شخص كان، لكي تنفذ حياة ابنها؟

أخذ يفكر في كل ما رأى منها هذه المرة، وقد تملكه الشك. إنها تبدو الآن بشخصية مختلفة عما عهدها. فهي أكثر تهذيباً وأكثر اتزاناً. رأى أنها كانت تستحق في الواقع، أن تمنح فرصة أخرى لاثبات ذاتها. وتملكه الرجاء في أنها الآن قد أصبحت بريتاني أخرى جديدة يمكنه أن يثق بها في النهاية.

عندما عادت من المطبخ، قال: «رائحة العشاء شهية للغاية.»

فقالت مازحة وهي تعود إلى الجلوس: «قد تخدع الرائحة أحياناً. إنما تذكر أن ليس بإمكانك أن نستعيد أزهارك.»

ضحك وهو يسألها: «أتحبين الطبخ دوماً؟»

فقالت: «ليس تماماً. ولكنني أخذت دروساً فيه منذ سنوات على كل حال، لأنني شعرت بالغباء إذ لا أعرف الأساس. وفي النهاية عدت فكررت سلسلة الدروس تلك، والآن تراني استمتع جداً بوجودي في المطبخ.»

فقال مفكراً: «لقد أصبحت امرأة مختلفة عما كنت عليه.»

قالت بضحكة متوترة: «أرجو ذلك.»

فقال: «أنا لا أقصد أن بريتاني القديمة كان فيها عيوب،

كل ما في الأمر أنك أصبحت مختلفة.» وتلاقت عيناها بعينيه: «فأنت الآن أحسن.»

غصت بريتاني بريقها. لم تكن تشعر بنفسها أنها أحسن. فهي ما زالت تخدعه، ناسجة أكاذيب وقصصاً لكي تنال ما تريد. شعرت فجأة بأن كل ذلك كان أكثر مما كانت تستطيع تحمله، وشعرت بظهرها يضعف تحت ثقل ما تشعر به من ذنب.

تلاشت ابتسامتها وهي تشبك يديها معاً، ثم قالت: «لوك، هناك شيء عليك أن تعرفه.»

فسألها ضاحكاً: «ماذا؟ هل هو أنك لم تطهي العشاء حقاً بل اشتريته جاهزاً؟»

شعرت بدقات قلبها تتسارع. وشعرت بحرارة الجو في الغرفة تزداد إلى حد لا يطاق.

قالت ببطء: «كلا. إنه شيء أكثر أهمية من ذلك.»

فأخذ يستمع إليها باهتمام. كان صوتها حازماً كما كان ذلك اليوم الذي جاءت فيه إليه، لأول مرة، في المكتب. وشعر من أعماقه أن ما سيسمعه منها لن يعجبه.

تابعت تقول: «إنه عن برايان.»

فتأوه في داخله. كان يرجو أن يتجنب الحديث عن الصبي هذه الليلة، مفضلاً التركيز على العلاقة الآن بينه وبين بريتاني. كان يريد أن يحددها قبل أن يستمرا في الأمور الأخرى.

فقال: «من الأفضل أن لا نتحدث عنه الآن. فالأمر ما زال مبكراً لذلك.»

فقالت بقنوط: «ومتى لا يكون ذلك مبكراً؟»

كبح لوك ما شعر به من الضيق: «بريتاني، إن هذا الوضع بأكمله هو جديد عليّ. في مثل هذا الوقت من الاسبوع الماضي، كانت حياتي تسير بنظام الساعة. أما الآن.» وهز رأسه: «أما الآن فلا أدري ما أشعر به في كل لحظة تمرّ بي. غاضباً، مشوشاً، متشككاً... إنني بحاجة إلى وقت.»

مالت إلى الأمام: «كم من الوقت؟ حتى انك لا تريد التحدث عنه؟ ألا تريد أن ترى شكله؟ ألا تشعر باهتمام يدفعك إلى السؤال عن حاله، أو عما يحب أن يأكل؟»

«لقد نسيت أنني لا أعرف هذا الشخص. فهو مجرد اسم بالنسبة إلي.»

«إذن دعني أحدثك عنه. دعني أجعله حقيقة بالنسبة إليك.»

«كلا. إنك تعلمين أنني أكره أن أدفع للشيء دفعاً، يا بريتاني. فلا تدفعيني.» وكان في صوته معنى التحذير.

أرادت أن تقول شيئاً، ولكنها عادت فأبقت فمها مقفلاً. أدرك أنها تشعر بالقنوط، ولكنه هو أيضاً كان كذلك. فقد جاء إلى هنا هذه الليلة في زيارة عادية لتبادل الآراء، وليس للحديث عن ابنها.

إنه مهتم طبعاً بالصبي، كأي انسان طبيعي. ولكنه لا يريد الآن أن يشتبك في صراع مع بريتاني وخداعها. وإلى أن يعلم إن كان بإمكانه أن يثق بها مرة أخرى، لا يريد أن يجر إلى حديث عن برايان. لقد قام بما طلبت منه، قدر إمكانه، وذلك باجراء الفحص الطبي. وهذا كل ما كان يريد القيام به بالنسبة لهذا الموضوع.

«إنني آسف.» قال ذلك آملاً بأن يتمكن من شرح مشاعره. ومال إلى الأمام: «كنت أفضل...»

ووقعت عيناه على شيء أبيض أمامه تحت المنضدة فمد يده إليه. كان حصاناً من البلاستيك أكبر من يده بقليل. شقلبه بين يديه ينظر إلى تفاصيله البسيطة، ثم رفع بصره إلى بريتاني التي كانت تحدق إلى اللعبة بصمت وبرودة.

«لمن هذه؟»

سألها ببطء رغم أنه كان يعلم الجواب. ثم نهض واقفاً محاولاً أن لا يظهر الغضب في صوته وهو يتابع قائلاً: «ما الذي يجري هنا، يا بريتاني؟»

ترددت وقد بدت غافلة عما حولها وهي تحدق في اللعبة بعينين لا تطرفان. ومرت لحظات أخذ لوك أثناءها يتساءل عما إذا كان عليه أن يلح بالأسئلة أكثر من ذلك. وأعمل ذهنه.

لكن لأنه لم يكن يعرف ما تفكر فيه، فقد بقي صامتاً. ثم،عندما أصبح الهدوء أكثر مما يستطيع احتماله، نهضت واقفة ودارت حول الكرسي لتواجه الردهة. كانت خطواتها بطيئة معدودة، ونظراتها رقيقة مليئة بالحب وهي تمد يديها إلى شخص أو شيء ما خفي عن النظر.

وبقدر ما كانت بريتاني هادئة، كان لوك يتفجر غيظاً. ذلك أنها لم تكن تقول شيئاً، فقد أصبح شخصاً غريباً في تمثيلية سرية من وضعها.

تباً لذلك. ربما هو يعيش في عالم أحلام، متصوراً أن هذه المرأة قد تغيرت.

وإذ أوشك على أن يترك الشقة وبريتاني، رأى شخصاً

يخرج من الردهة، وكان صبياً يدعك عينيه ويحمل بطانية وهو يتقدم نحوها ويضع ذراعه حول فخذها.

استدارت بريتاني إلى لوك ببطء، وقد تبدد من ملامحها كل بقايا الضيق لتعود مرة أخرى تلك المرأة الواثقة من نفسها كما عرفها الآن.

قالت دون تردد: «لوك، أريدك أن تقابل إبني برايان.»

www.elromancia.com

الفصل الخامس

أخذ لوك ينظر ذاهلاً إلى بريتاني وهي تقود ابنها حول الكرسي إلى غرفة الجلوس. مرة واحدة في حياته، أغمي على لوك. وذلك عندما كان عليه أن يتلو شعراً أمام اجتماع مدرسي. كان شعره حينذاك كشعوره الآن بالضبط. كانت ساقاه متيبستين وجلده ينضح عرقاً، كما أخذ يشعر بطنين في أذنيه.

«قل مرحباً للسيد ماك كول.» قالت بريتاني ذلك برقة وهي تجلس على كرسي ثم توقف ابنها إلى جانبها. لكن الصبي بقي صامتاً ملتصقاً بها متراجعاً إلى الخلف إلى أن أصبح جالساً في حضنها.

ابتسمت هي ولفت ذراعيها حول وسطه، وهي تقول ملطفة الجو: «إنه خجول قليلاً مع الغرباء، أليس كذلك، يا حبيبي؟»

عاد لوك يجلس على الأريكة، مدركاً أن عليه أن يقول شيئاً ولكنه غير قادر على لفظ الكلمات التي تعبر عن مشاعره هذه اللحظة. ما هذا؟ إنه لا يعرف ما كان يشعر به عدا هذا الذهول الذي تملكه. برايان خجول مع الغرباء؟ ولكنه والده...

وأعماه تشوش ذهنه عن الرؤية، فأغمض عينيه لكي لا يراه...

ثم فتحهما مجدداً.

كان برايان أحد أجمل الأولاد الذين رآهم. كان لون شعره مماثلاً للون شعر والدته، بنيا داكناً متألقاً، ولكن بينما كان لون عينيها فاتحاً، كان لون عينيه داكناً... بنفس لون عيني لوك. وكان يرتدي كنزة وبنطلونا من التويد بحمالات ما جعله يبدو كرجل صغير رغم احتضانه لبطانيته كما يتمسك الأطفال بممتلكاتهم.

ازدرد لوك ريقه بصعوبة، ثم أرغم نفسه على الكلام: «مرحباً، يا صغيري.»

«مرحباً.»

انحدرت نظرات برايان إلى الدمية والتي كانت ما تزال في يد لوك. وناوله لوك إياها فأخذها هذا منه.

فقال لوك له: «إنه حصان جميل.»

حصان جميل. أهذا كل ما وجد ليقوله؟ ولكن هذا كان أفضل ما وجد في مثل هذا الوقت القصير. فهو لم يتعود قضاء كثير من الوقت مع الأولاد، فكان غير ماهر في الحديث إليهم، ولم يكن يدري ما يقول.

فقال الصبي برزانة: «لقد اشترته لي والدتي أمس. إنه يحدث صوتاً. أنظر.» وضغط على بطن الحصان فأخذ هذا يصهل.

أخذ لوك يحدق إلى اللعبة: «ما أجمله. لقد فهمت لماذا تحبه.»

كانت بريتاني تنظر إلى لوك وهم يتلعثم في حديثه، وشعرت بالاحترام لمحاولته الحديث. لقد كانت خائفة من أن يندفع خارجاً من الشقة أو أن يلقي إليها باتهام غاضب عندما يرى برايان. ومع أن الدهشة بدت على وجهه، إلا أنه

ما زال يقوم بدور الرجل المهذب. وتملكها الرجاء في انقاذ السهرة هذه.

اقتربت بريتاني برأسها من رأس الصبي ثم ابتسمت إزاء مظهره الناعس، وقالت له: «لماذا لا تحضر ورقك وترسم للسيد ماك كول صورة حصانك ليأخذها معه؟»

فأومأ برايان، ثم انزلق من حجرها سائراً نحو الردهة وهو يسيّر حصانه في الهواء. أخذت هي تنظر إليه قدر امكانها، ثم التفتت إلى لوك،وإذا بتفاؤلها قد تبدد. كانت عيناه مثقلتين بعدم التصديق، وهذا أخبرها بأن الأمور لم تكن حسنة كما كانت ترجو، وسألها بصوت منخفض: «كيف أمكنك القيام بحيلة كهذه؟» كان مقطباً جبينه بغضب: «كيف تفعلين معي شيئاً كهذا؟»

فبللت بريتاني شفتيها الجافتين بلسانها وتملكها خوف مفاجيء تسارعت معه خفقات قلبها. لقد كانت أخطأت حساباتها، وكل ما يمكنها الآن هو أن تتمنى من كل قلبها أن يصطلح ما أفسدت من أمور: «إنني آسفة، يا لوك...»

أخذ يتنفس بسرعة وحدة وقد توتر فمه: «ما الذي كنت تفكرين فيه؟ ومن تظنين نفسك لكي تفعلي معي كل هذا؟ وماذا تريدين من وراء هذا؟ لقد كنت طلبت منك وقتاً...»

أجابت بحدة وقد غطى غضبها على أسفها: «قد لا يكون هناك وقت. وإذا كنت تعلمت شيئاً من هذا، هو أن كل دقيقة هي ثمينة. لا أحد يعلم ما إذا كنا هنا غداً لنقول ما ينبغي قوله اليوم.» وإذ أدركت مدى خشونتها، أرغمت نفسها على

كبح قنوطها وسكتت. ذلك أن للوك كل الحق في أن يغضب منها.

عادت تقول بصدق: «إنني آسفة. كنت أظنك ستكون مسروراً لرؤيته...»

«ربما كنت كذلك لو أنك نبهتني قبل ذلك...»

فأومأت، متقبلة اللوم على سوء تقديرها، وقالت: «هل هناك ما يمكنني قوله...؟»

فساد صمت.

بدا عليها الحزن ونهضت واقفة: «سأتفقد الطعام إذن.»

وعندما تركته، إتكأ إلى الخلف وأغمض عينيه، وهو يفكر كيف أنه صدق حقاً أنها تغيرت الآن.

يا له من أحمق. إن بعض الأشياء، وبعض الناس، لا يتغيرون أبداً.

كلما حاول أن يركز أفكاره على بريتاني وما يشعر به نحوها من يأس، إذا بوجه برايان يتراءى له. ما أجمله... لكنه بالغ الهدوء..

هل هو هادىء على الدوام؟ أم أن بريتاني تتستر عليه؟ إن ولداً من دمه لا يمكن أن يكون بهذه الرزانة... كلا، إن ابنه لا بد أن يكون عابثاً صاخباً و...

طرق سمعه صوت خطوات في الردهة بدا بعدها برايان عائداً إلى غرفة الجلوس حاملاً بيديه ملفاً وأقلاماً. ودون أن ينظر إلى لوك، وضع حصانه بكل لطف على المنضدة ثم سحب من الملف قطعة ورق.

ثم نادى وهو يبحث في الملف: «ماما. أريد صوري اللاصقة.»

فردت عليه من المطبخ: «إنه في غرفة نومي. في الملف الأزرق.»

دون أن ينطق برايان بكلمة، نهض مغادراً الغرفة. وأخذ لوك يحدق في هذا الصبي الذي ولد منذ قرابة السبع سنوات دون أن يدري هو عنه شيئاً. وفجأة، تدفقت الأسئلة على ذهنه بسرعة وغضب. ماذا يحب أن يأكل؟ إنه يبدو صغير الجسم بشكل فظيع. هل يقوم بألعاب رياضية؟ يبدو أنه يحب الجياد، فهل حدث وتنزه على ظهورها؟

شعر بصداع. هل يبقى أم يذهب؟ هل يواجه بريتاني أم يتقبل بهدوء ما لم يعلمه قط، وربما لن يعلمه أبداً، ماذا بإمكانها أن تقوم به؟ وبعد أن تنفس بعمق عدة مرات، إذا ببرايان يعود حاملاً عدة ملفات وضعها على المنضدة ووجد، وهو عابس يفكر، الملف الحاوي على الصور اللاصقة، فدفع الملفات الأخرى جانباً فسقط واحد منها على الأرض بينما كان هو يهتف مسروراً: «لقد وجدته.»

انحنى لوك يلتقط الملف.

وكان على وشك أن يضعه مع البقية، عندما نظر إلى الغلاف فتملكته الدهشة إذ وجد اسمه كاملاً مطبوعاً على بطاقة بيضاء ملصقة عليه. فتصاعد فضوله كشف الغطاء وهو يتساءل عما إذا كان له الحق في النظر إلى الداخل، ثم تذكر آخر خدعة لبريتاني. إن ذلك يمنحه ذلك الحق في الاطلاع على ما تهم بالقيام به، دون ريب.

فتح الملف وأخذ يقرأ، وقد تملكه الذهول، كل ما جرى

معه في السنوات السبع الأخيرة من حياته. هذا إلى أسماء كل صديقاته اللاتي كان يخرج معهن.

توهج وجه لوك. إذن فقد كانت تضعه تحت المراقبة؟ هذا هو السبب إذن في أنها كانت تعلم عنه كل شيء؟ وتملكه الغضب. كان عليه أن يفهم ذلك بنفسه. كان هذا سيحدث لو أنه لم يثق بها بذلك الشكل الأعمى ظناً منه أنها تخبره بالحقيقة. إنها لم تسمع بأخباره من الأصدقاء، وإنما كلفت بعض الغرباء لاخبارها بكل أعماله...

تخلل شعره بأصابعه، وقد اشتد به الصداع إلى حد لم يعد يطيقه. هذا الوضع الفظيع لن ينتهي أبداً. وشعر بالغثيان لخداعها هذا، فأغلق الملف بعنف وألقى به على المنضدة، وحينئذ فقط، لاحظ مستنداً ملقياً على الأرض بجانب قدمه.

من ناحية، لم يكن يريد أن يعرف ما هو، ومن ناحية أخرى أدرك ذلك مسبقاً. ولكنه كان يدرك من أعماقه أنه في اللحظة التي يطلع فيها عليه، فإن حياته ستتغير إلى الأبد.

نظر إلى برايان وهو يزدرد ريقه، ولكن هذا كان مستغرقاً في رسم صورة لحصانه. كما أن بريتاني ما زالت في المطبخ.

لم يكن هناك سبب مطلقاً يمنعه من التقاط المستند هذا... فهو...

أخذ لوك يقرأ المستند ببطء وباهتمام فائق. كان شهادة مولد، كما سبق وتنبأ بذلك. شهادة مولد برايان.

برايان ماك كول هدسون.

الوالد: لوك إدوارد ماك كول.

احمرت الدنيا أمام عينيه غضباً، وسرعان ما استحال ذلك إلى عرق بارد. إن بإمكانه أن يسأل بريتاني، ولكن كيف بإمكانه أن يناقشها بشأن شهادة مولد برايان؟

حدق إلى برايان الذي كان مستغرقاً في اهتمام عميق، واكتسحه شعور عميق بالأبوة والخوف. إن له ابن. نموذج صغير لإنسان يعيش ويتنفس لم يكن يعرف هو عنه شيئاً منذ ما يقارب السبع سنوات. وعندما عرف الآن، وجد أنه لا يعرف كيف يتصرف تجاه هذا الوضع.

عندما أخذ يستجمع شتات ذهنه، عادت بريتاني من المطبخ مباشرة إلى حيث المنضدة فجلست دون أن تنظر إليه.

سألت برايان: «كيف يسير الحال؟ هل وجدت...» كانت تحدثه وهي تنحني لتنظر إليه وهو يعمل.

وقعت عيناها على الملف الآخر الذي بجانب يد برايان. وإذ قرأت الاسم المدون عليه شعرت بالشحوب يكسو وجهها وبأن الغضب قد هاجمها. وأكد لها ذلك عينا لوك.

وفجأة، شعرت بأنها لم يعد في استطاعتها احتمال كل ذلك. الكفاح لأجل حياة برايان، الكفاح للتقريب بين الوالد وابنه، والكفاح لجعل لوك يهتم بابنه...

أجفلت، رافضة الاستسلام إلى الدموع. وأخذت تستمد الطاقة من الينبوع الداخلي للقوة التي جعلتها تصل في كفاحها إلى هذا الحد. لقد انتهى الكفاح وقد قامت هي بما كانت تريده من العمل لانقاذ حياة برايان. أما البقية فلها أن تبقى حلماً لم يتحقق.

قال لوك بصوت خافت: «نعم، لقد قرأت ذلك.»

لم تجرؤ على سؤاله عما إذا كان يشير إلى اسمه على الملف الذي يحتوي على تقرير رجل التحري، أم إلى شهادة مولد برايان. ولكن هذا لم يعد يهم: «أظن ليس هناك ما يمكنني قوله.»

فهز رأسه قائلاً: «لتخليص نفسك؟ كلا، ليس هناك ما يقال.»

وبينما كان برايان يناضل لرسم سرج الحصان، كانت بريتاني تشعر بقوة الحياة تنسل من روحها. فمن كل الأخطاء التي ندمت عليها في حياتها، كانت هذه هي الأسوأ. لم يكن ثمة تراجع الآن. لقد أذنبت وتلقت عقوبتها، ولم يعد هناك ما تفعل سوى القبول بها.

تحققت مخاوفها عندما نهض لوك واقفاً وهو يقول بلهجة جامدة: «عليّ أن أذهب الآن.»

ارتجفت وعضت شفتها وهي تقف بدورها وتقابل نظرته بما أمكنها من شجاعة، ثم تقول برقة: «إنني متفهمة لذلك. هل ستتصل هاتفياً فيما بعد؟»

فتردد طويلاً ما جعلها تشك في أنه سيجيب. وأخيراً قال دون أن يحول عينيه عن عينيها: «لا أدري. فقط، لا أدري حالياً.»

شعرت بيديها وقدميها كالثلج، وتملكتها قشعريرة.

قالت وهي تلف ذراعيها حولها طلباً للدفء: «سأسير معك إلى خارج الباب.»

«كلا، سأخرج وحدي.»

ثم غادر المكان. منذ لحظة واحدة كان موجوداً، وفي

اللحظة التالية عادت بريتاني وحيدة كما كانت دوماً. لحظة واحدة، عندما كان لوك يتحدث إلى برايان، تصورت أنهم أفراد أسرة واحدة يتحدثون ويضحكون ويهتمون ببعضهم البعض. ولكن تلك التصورات لم تدم سوى ثوان معدودات عاد بعدها عبء السنوات الموحشة المقبلة يلوح أمامها. لم يكن لديها ما تتطلع إليه، رغم أنها كانت تعلم أن بإمكانها اجتياز ذلك بشكل ما، ولو لأجل، برايان.

أعلن برايان قائلاً بفرح: «لقد انتهيت.»

والتفت إلى والدته وبيده الصورة يريها لها. كان الحصان قد تحول إلى جمل بذيلين، أما السرج فقد كان بحاجة إلى أكثر من ثلاثة رجال لرفعه. أما الصورة نفسها فقد كانت مغطاة بالصور اللاصقة المختلفة الألوان.

فقالت له وهي تعض شفتها تخفي بذلك خوفها من المستقبل: «إنها رائعة الجمال يا حبيبي، وأنا واثقة من أن السيد كان سيحبها جداً.»

«متى سيعود؟»

جذبته إليه تضمه إلى صدرها وفي يده حصانه بينما الصورة على المنضدة: «إنني لست واثقة من ذلك، يا حبيبي. وآمل أن يكون ذلك قريباً.» وتاهت نظراتها في الفراغ وهي تشدد من احتضانها له.

* * *

مضى على ذلك ثلاثة أيام لم تسمع بريتاني خلالها صوت لوك. فهو لم يذهب إلى مكتبه، ولكن كارول تلقت منه مكالمة أو اثنتين بشأن عمل ينبغي القيام به في المكتب. ولم يكن

لديها فكرة عن مكانه أو موعد عودته، ولكنها لن تنسى أن تخبره حالما يتصل بها مرة أخرى بأن بريتاني اتصلت به. ولكن بريتاني قالت لها بشيء من الحدة: «كلا.» لكنها ما لبثت أن لطفت من لهجتها وقالت بعد ضحكة قصيرة: «هذا ليس مهماً في الواقع... ثم إنه سيفسد المفاجأة.»

كانت بهذا تتعلق بسبب واه. ذلك أن آخر ما كانت تريده أن يظن لوك أنها تركض خلفه.

ذلك لأن هذا، في الواقع، لم يكن صحيحاً. كان كل ما تريده هو أن تعلم أين هو وماذا كانت ردة فعله إزاء مقابلته لبرايان. تنهدت وهي تضع السماعة، محدثة نفسها بأنها في الحقيقة، تريد أن تعرف مبلغ غضب لوك منها.

كيف لها أن تعلم ذلك ما دامت لا تعرف أين هو؟ إنه ليس في المكتب ولا في البيت. حتى ولو كان هناك فهو لم يكن يرد على الهاتف.

قامت بريتاني في الأيام الثلاثة الأخيرة بالكثير من محاسبة الذات. لقد رأت خطأ ما اتبعته من وسائل زاده قوة طبيعة لوك غير المتسامحة أحياناً، رغم أن تصميمها على أن تجعله يرى النور، كان أقوى. نعم، عندما ترك شقتها كان غاضباً. ولكنها كانت مقتنعة بأن الحديث معه عن كل شيء سيذهب بكل ما يتملكه من شكوك نحوها. ولكن عليها أن تجده أولاً. فإذا لم تستطع أن تجده بالطرق العادية، فعليها أن تجد طريقة أخرى.

واستعرضت كل الامكانيات، دارسة المشكلة في ذهنها مرة بعد أخرى بينما تحدق من النافذة إلى سماء كالغاري.

طريقة أخرى قد تجد بها لوك...

ولاحت على شفتيها ابتسامة بطيئة. من الغريب أنها لم تفكر مرة في ما هو واضح أمامها. ما الذي يمنعها من التجربة؟ إنها لن تخسر شيئاً على أي حال.

ونادت: «برايان، استعد لنخرج معاً، من فضلك.» قد يكون الضرب على الحديد وهو حام، هو الأفضل.

* * *

بعد ذلك بساعة، وضعت بريتاني ذراعها حول كتفي برايان محاولة تهدئة نفسها. كانت رياح شهر شباط (فبراير) تعصف بشدة ما شعرت معه بالسرور وهي تحتمي منه عند مدخل منزل آل ماك كول، رغم أنها كانت تشعر بأن البرد الذي تحس به هو ناشيء عن الخوف أكثر منه عن الجو.

فتحت الباب خادمة وقفت تسأل: «نعم؟»

«مرحباً. اسمي هو بريتاني هدسون. هل السيدة ماك كول في الداخل؟»

«هل لديك موعد معها؟»

«آه، كلا.»

«ادخلي، وسأرى إن كانت هنا.»

أدخلت بريتاني ابنها أولاً، ثم تبعته ويدها ما تزال على كتفه لاستمداد الشجاعة لهما معاً. كان المنزل كما تتذكره، على نحو ما، واسعاً رائع الجمال وبالغ النظافة، وكان قد أعيدت زخرفته عما كان عليه في آخر مرة زارته.

عادت الخادمة تقول باسمة: «إن السيدة ماك كول تنتظرك في غرفة الجلوس.»

دخلت بريتاني مع ابنها، منتصبة القامة ثم دخلت إلى الغرفة وهي تحاول جهدها أن تبدو واثقة من نفسها. فإذا كان لوك غاضباً لتقديمه إلى برايان من دون سابق إعلام، فهو سيثور غضباً عندما يعلم أنهما زارا والدته من وراء ظهره.

هتفت السيدة ماك كول وهي تمد لها يديها الاثنتين: «بريتاني... يا له من غياب طويل.»

فبادلتها بريتاني الابتسام وأخذت يدي المرأة بين يديها وكانت فيرا ماك كول سيدة رشيقة طويلة القامة بالغة الأناقة. ورغم مظهرها الارستقراطي الأنيق، فقد كانت ابتسامتها دافئة مخلصة تعبر عن سرورها الفائق بهذه الزيارة غير المتوقعة.

قالت بريتاني: «السيدة ماك كول...»

فقاطعتها المرأة: «بل فيرا من فضلك. عندما كنت أنت هنا كنت أنا فيرا بالنسبة إليك، ولم يتغير شيء.»

ضحكت بريتاني وجلست على أريكة بجانب نافذتين مستطيلتين. ثم قالت تجيبها: «نعم، كان غيابي طويلاً.»

كان برايان قد جلس ملتصقاً بها.

انحنت فيرا ماك كول إلى الأمام وهي تنظر إلى برايان ثم تلاشت ابتسامتها ونظرت إلى بريتاني متسائلة: «ومن هذا السيد الصغير؟»

أجابت بريتاني وهي تراقب ردة الفعل عند فيرا: «هذا برايان.»

عادت فيرا تنظر إلى برايان تمعن النظر في ملامحه

لحظات طويلة قبل أن ترد بصرها إلى بريتاني، ثم بهدوء بدا فيه نوع من الأمل: «كم يبلغ عمره؟»

«إنه في السادسة. وفي آذار (مارس) يتم السابعة.»

أخذت بريتاني تراقب فيرا وهي تفكر، ثم سمعت شهقة الادراك منها وهي تنتصب في مقعدها ناظرة إلى بريتاني في عينيها مباشرة: «هل هو...؟»

فأومأت، وما لبثت أن شعرت بقلبها يهتف نحو فيرا التي دمعت عيناها على الفور. كان المرأة حادة الذكاء سريعة الفهم، وكان على بريتاني أن تدرك ذلك. وسألتها المرأة: «أيمكنني؟»

«طبعاً.»

عادت فيرا تنظر إلى برايان ثم ابتسمت له: «ما أجمل هذا الحصان الذي لديك يا حبيبي. هل يمكنني أن أراه؟»

فنظر الصبي إلى والدته التي أذنت له بذلك، عندئذ انزلق عن الأريكة وسار نحو فيرا. أخذت بريتاني تنظر إليه مزهوة وهو يريها الحصان، وسرجه، ثم كيف يصهل عند الضغط عليه. اغرورقت عيناها بالدموع عندما مدت فيرا ذراعها إلى الصبي فاستكان هو إليها. كانت فيرا على وشك البكاء هي أيضاً، وقد طفحت عيناها حباً عندما أخذ برايان يثرثر عن الجياد وكيفية العناية بها.

عندما عادت الخادمة لتسأل عما إذا كانوا يريدون قهوة، اقترحت بريتاني أن يذهب برايان معها إلى المطبخ لتناول الحليب والكعك. وعندما أصبحت المرأتان وحدهما، أخذت بريتاني تحدثها عن ظروف ولادة برايان... مغفلة السبب

الحقيقي الذي جعلها تهجر بيتها... مركزة على ان لوك ما زال غير مصدق بأنه والد برايان، وأخيراً عن مرض برايان.

فهتفت فيرا بفزع: «كلا... لا بد أن بإمكانكما القيام بشيء في هذا السبيل.»

«إننا نقوم بهذا فعلاً. فقد قدم لوك دمه للفحص. ولم يبق أمامنا سوى أن تظهر النتيجة لكي نبدأ بنقل مخ العظم.»

سألتها فيرا وقد بان القلق عليها: «وماذا إذا كان دم لوك غير ملائم؟ أيمكنني أن أقدم أنا دمي للفحص؟ وكذلك والد لوك؟»

ابتسمت بريتاني شاكرة: «أظن أن الجدين نادراً ما يكون دمهما ملائماً. ولكنني أشكرك جداً لعرضك هذا. إنني واثقة من أن كل شيء سينتهي على خير.»

لم يبد الاقتناع على فيرا، ولكنها سمحت بتغيير الموضوع. فوقفت، ثم سارت إلى مكتب فتحت درجه تبحث فترة عادت بعدها بصورة فوتوغرافية وقلم وهي تقول: «إن تصرف لوك بذلك الشكل لا يدهشني فأنا والدته وأعرف أكثر من غيري مبلغ عناده. فقد كان صبياً فظيعاً. وكان القنوط يتملكني أحياناً، فأضربه على كتفه لكي أجعله يفصح عما يفكر فيه.»

«وهل كان ذلك يفيد؟»

ضحكت بأسى وهي تقلب الصورة وتبدأ بالكتابة عليها: «أبداً. فقد كان يتعمد اغاظتي وذلك بالتأخر عن الاجابة قدر استطاعته. والآن.» وقفت تمد يدها بالصورة إلى بريتاني، قائلة: «إذا أنت رأيت لوك قبلي، أريه هذه الصورة. فهي تساعده على التعقل.»

أخذت بريتاني تمعن النظر في الصورة وقد حبست أنفاسها. فقد كان لوك صورة أخرى لبرايان عندما كان في سنه.

وسألت: «كم كان عمر لوك في هذه الصورة.»

أجابت فيرا وهي تبتسم لبرايان الذي كان عائداً مع الخادمة وعلى شفته العليا شارب من الحليب، أجابت قائلة: «هذه الصورة ليست للوك. بل لوالد لوك.»

ضحكت بريتاني مدهوشة، ثم قلبت الصورة لتقرأ ما كتبته فيرا على ظهرها: «لا تشك في ذلك لحظة واحدة.»

بابتسامة شاكرة لفيرا التي كانت جذبت إلى جانبها برايان مرة أخرى، وضعت بريتاني الصورة في حقيبة يدها، شاعرة بالارتياح إذ تجد شخصاً يصدقها ما دفع عنها مخاوفها. إن كل يوم يمر يقربهم خطوة إلى حل هذه المشكلة.

• • •

استيقظت بريتاني مجفلة. ومن خلال الظلام سمعت من يطرق بابها الخارجي بقوة تعني إما أن يدخل وإما أن يحطمه.

قفزت بريتاني من الأريكة التي فاجأها عليها النعاس وهي تقرأ. فشدت حزام معطفها المنزلي حولها وهي تسير نحو الباب. وإذ نظرت من خلال فتحة المنظار دهشت وهي ترى لوك واقفاً أمام الباب. فتحت الباب وهي تندفع قائلة: «لوك. ماذا حدث؟ لماذا...»

وإذ تقدم خطوة، لاحظت حالة ملابسه. كانت لحيته لم

تحلق منذ يومين، وعيناه مظلمتين يبدو عليهما الارهاق.

سألته باهتمام: «هل أنت بخير؟ إنك تبدو فظيعاً.» لم يتكلم وإنما حدق إليها بعينين شاردتين ولم تعرف هي ما عليها أن تفعل في الردهة، فأخذت بذراعه وجذبته إلى الداخل. فدخل دون نقاش.

سألته: «أين كنت؟»

«في الكوخ.»

تاقت نفسها إلى أن تمر بيدها على شعره تنظمه. ولكنها لم تجرؤ. وهكذا أخذت تبحث في ذهنها عن شيء حيادي تقوله.

«هل أنت جائع؟ هل أحضر لك شيئاً؟»

لم يبد عليه أنه سمعها. بل سمرتها عيناه بينما قطب جبينه قليلاً، وأخيراً قال: «هل برايان هو ابني حقاً؟»

خفق قلب بريتاني، وشعرت بوهن في ساقيها. كانت هذه هي اللحظة التي تنتظرها، ومع ذلك لم تجد ما تقوله.

وأخيراً قالت بهدوء: «نعم. هو ابنك.»

رأت العذاب يكسو ملامحه، فنهضت إلى حيث حقيبة يدها على منضدة الردهة وأخرجت منها الصورة التي كانت فيرا أعطتها لها، ثم ناولتها له.

أخذها لوك منها وأخذ يتفرس في صورة والده وفيما كتبته والدته على الخلف. انحنت كتفاه وأغمض عينيه وهو يميل برأسه إلى الخلف ويتنفس بعمق، وقد أدرك رغم كل أساليب الخداع التي كانت بريتاني استعملتها بينهما، أدرك أنها، هذه المرة، تخبره بالحقيقة.

سألها وقد شعر أنه غير قادر على الانتظار لحظة أخرى: «هل يمكنني أن أراه؟»

فأجابت وهي تشير إلى الردهة: «طبعاً، وسأنتظر هنا.»

فخلع لوك حذاءه، وكانت ساقاه تهتزان إثر ساعتين من قيادة سيارته وخمسة أيام عزلة كان أثناءها يفكر بالذي حصل. لم يكن ينوي الاختفاء كل ذلك الوقت الطويل، ولكن هذا ما حدث. وكان، وهو يصعد إلى سيارته، يدرك تماماً أن عليه أن يقرر أمره مع برايان وإلا فسيجن حتماً من الشكوك.

وقف بجانب سرير برايان وأخذ يحدق في هذا الصبي المكور على نفسه وبجانبه كرة، وقد جذب بطانيته الزرقاء إلى ما تحت ذقنه، وفي ملامحه الهادئة الصافية. في الواقع، كانت ملامحه من الهدوء بحيث انحنى لوك عليه يستمع إلى تنفسه.

كان الصبي بالغ الرقة والجمال.

هو ابني أنا...

مرر لوك بيده على شعره، ثم تراجع خطوة إلى الخلف، ثم رقت ملامحه وهو ينظر إلى الحصان البلاستيكي على المنضدة قرب السرير. كان لعبة صغيرة لا يهتم بها أحد سوى صبي يعشق الخيل، وشعر لوك فجأة بكثرة ما عليه أن يتعلمه ليصبح والداً حقيقياً لبرايان.

كل ما كان يرجوه هو أن يمنح وقتاً لذلك.

ألقى عليه نظرة أخيرة، ثم عاد إلى غرفة الجلوس. وعندما ألقى بنفسه على زاوية الأريكة، سألته: «هل يمكنني أن أحضر لك شيئاً؟»

فقال: «لا بأس بفنجان قهوة.»

غادرت الغرفة بينما أراح هو رأسه إلى الخلف على مسند الأريكة. لقد انتهى أمره الآن وعليه أن يتقبل برايان إبناً له بنفس البساطة التي يتقبل بها التقرير اليومي عن الجو. عندما شعر بهذا القبول الأعمى والذي لم يعد يقبل المناقشة، عاد إلى كالغاري بلهفة وسرعة ولم يتوقف إلا عند باب بريتاني.

عادت بفنجانين من القهوة وضعتهما على المنضدة ثم جلست في مواجهته.

تملكه أسف هائل. لقد عادت إلى حياته، وها هو ذا تمر به لمحة من السعادة قبل أن تعود إلى طبيعتها من التخفي والخداع. لقد كان يؤلمه أن يرى فيها كل شيء ما عدا صلاحيتها لتكون رفيقة حياة مثالية... امرأة يمكنه أن يثق بأنها لن تسبب له التعاسة مرة أخرى.

لكنها أنشأت طفلهما بكل الحب الذي بإمكان أم أن تمنحه، فهي تستحق كل شكره لذلك.

سألها وهو يرشف القهوة: «في أي وقت يستيقظ صباحاً؟»

«بين الساعة الثامنة والثامنة والربع، لماذا؟»

تردد قليلاً، ثم قال: «أريد أن أكون هنا.»

فهزت كتفيها: «بالتأكيد. يمكنك أن تعود حوالي السابعة والنصف. وسأكون مستيقظة حينذاك.»

فقال بحزم: «كلا. إنني لن أذهب الليلة. أريد أن أتأكد من وجودي هنا عندما يستيقظ.»

لم تبد بريتاني أية رغبة في المناقشة. بل غطت فنجانها

براحتيها ومضت تحدق إليه بملامح جامدة لا تفصح عن شيء.

ثم قالت: «يمكنك أن تنام في سريري إذا شئت. أعني أنني سأنام على الأريكة بينما تنام أنت على السرير.»

مد يده يقفل فمها بأصابعه قائلاً: «لا بأس. سننظر في ذلك فيما بعد، فلا تقلقي لهذا الشأن. أخبريني فقط بأن لا بأس في بقائي.»

قالت بسرعة: «طبعاً، وفي أي وقت تشاء.»

فأومأ قائلاً: «شكراً.» رآها بالغة الرقة دافئة النظرات... وبدت له مميزة بعد هذه الرحلة الطويلة التي اجتازها وليس في ذهنه سواها. لقد كان أمضى ساعات طويلة في الكوخ وحيداً، يفكر في الماضي والمستقبل، متشوقاً إلى أن يكون مع بريتاني وبرايان، ولكنه كان يعلم أن عودته إليهما تعني التزامه بهما طوال الحياة.

عند ذلك أدرك أن ذلك الالتزام هو ما يريده بالضبط، على الأقل بالنسبة إلى برايان. لقد سلب من مرافقة ابنه طوال السنوات السبع الماضية، وهو الآن يريد أن يتعرف إلى كل دقيقة وثانية من حياته من الآن فصاعداً.

قال بلهجة طبيعية: «أريد أن أكون جزءاً من حياته. لا أريد المزيد من الأكاذيب، ولا المزيد من الهرب. إنه ابني وأنا أريد أن أكون جزءاً من حياته الآن.»

اغرورقت عينا بريتاني بالدموع، وهمست: «لك ما تريد.»

«وأريد أن أخبره بأنني والده، في أسرع وقت ممكن، إلا اذا كان هناك سبب يدفعني إلى الانتظار.»

فترددت: «لم أفكر في ذلك. أظن أن هذا أمر سندركه حين يحين وقته.»

فأومأ لوك برأسه، ثم سألها: «كيف عرفت والدتي بذلك؟»

«عندما لم أعثر عليك، ذهبت لزيارتها.» وبدا في عينيها شيء من الخوف: «خفت أن لا تتحدث إليّ مطلقاً بعد ذلك. ففكرت... فكرت في أن عليّ...»

وسكتت، فشعر برقة نحوها. إن بإمكانه أن يتصور ما عانته أثناء السبع سنوات التي افترقا فيها. خوف، عذاب، صدمات. والاحباط الذي كانت شعرت به مؤخراً لظنها أنه كان قد هجرها وهي في أمس الحاجة إليه وذلك مرتين.

تنهد وهو يأخذ فنجان القهوة من يدها فيضعه جانباً ثم جذبها نحوه حيث أجلسها بقربه ورفع ذقنها باصبعيه ينظر إلى وجهها بعينين تفيضان حناناً.

ارتجفت هي واغرورقت عيناها بالدموع وهي تهمس: «أواه، يا لوك. كم هو غال.»

أجاب مغمضاً عينيه مستمتعاً بشذا عطرها: «إنكما، أنتما الاثنين، غاليان.»

فقالت بصوت مرتجف: «لا أدري ما سأفعل لو أنني فقدته. إنه كل ما لدي في الحياة، والخوف عليه يكاد يقتلني. لقد لازمني الخوف منذ مدة طويلة، ولا أدري...»

فهمس يقول: «هس... إننا لن نفقده، يا بيتي.»

شعر بغصة في حلقه وهو يراها بقربه، وأخذ يقاوم رغبة عارمة في ضمها إليه، ولكن ما زال هناك الكثير من عدم الثقة بينهما يمنعه من ذلك.

قالت: «كان يسألني عنك هذا النهار. فهو يريد أن يعطيك الصورة التي رسمها. إنه... أواه، يا لوك.»

قالت ذلك وهي تشهق باكية: «أريده أن يعود صحيحاً معافى كما كان.»

شعر بألمها كأنه ألمه هو أيضاً. فقال بحزم يخفف عنها: «مهما طال الأمد، فسننجح في مسعانا.»

وسكت يفكر مثقل القلب... ماذا لو لم ينجحا؟ وحول وجهه عنها يفكر في برايان وأن عليهما، هم الثلاثة، أن يستجمعا قواهم لكي يجتازوا محنة الاسابيع القادمة.

وعاد يقول بحزم: «إننا لن نفقد إبننا.»

الفصل السادس

أخذ لوك ينظر إلى برايان وهو يرشق والدته بكرات الثلج، فيخطئها. فتقدم من برايان ضاحكاً من كل قلبه، ثم احتضنه بين ذراعيه، مخفياً خلف ابتسامة واثقة، شعور الأسى الذي تملكه وهو يشعر بخفة وزن الصبي.

«هيا يا صغير، هل بهذه الطريقة تعامل السيدات؟»

قال له هذا وهو يديره بين ذراعيه ناظراً إلى وجنتيه المتوردتين. كانت هذه هي المرة الوحيدة التي يرى فيها لوناً في وجه برايان وذلك منذ أول لقاء له به منذ ستة أيام، وسره أن يراه باسماً ويسمع ضحكاته الطفولية وهو يجيبه: «نعم، إذا كانت والدتك ترغمك على أكل المعكرونة.»

فضحك لوك مرة أخرى، مسروراً بوقاحة إبنه هذه. وقال وهو يشير إلى بريتاني التي كانت الآن تحمل بيديها كرة ثلجية: «معك حق. ما رأيك في أن نعلم هذه السيدة شيئاً أو اثنين عن المعكرونة؟»

أجاب برايان: «نعم، فلنفعل.»

فوضع لوك برايان على الأرض وأخذ بعض الثلج جعل منه كرة صغيرة، ثم قال وهو يسلمها إلى برايان.

«هاك. والآن، الحيلة هي أن...»

نادتهما بريتاني: «إسمعا، أنتما الاثنين. ليس من العدل أن تتفقا ضدي. دعا عنكما هذا.»

نظر لوك إلى بريتاني. كانت ترتدي سترة ذات ألوان مختلطة براقة وعلى رأسها عصابة وردية تدفع شعرها إلى الخلف. وكانت وجنتاها بمثل لون وجنتي برايان الوردي. وكانت تبتسم ضاحكة. بدا للحظة أنهما الانسانان الوحيدان في العالم حيث شعر لوك بنفسه وكأنه عاد إلى الماضي، متلهفاً إلى العودة إلى هذه المرأة والتي لن تحصل إلا بمرور الوقت وعودة الثقة بها.

جذبه برايان من ذراعه صارفاً بذلك اهتمامه إليه، وهو يقول: «لوك... هل هذا حسن؟»

كان يمسك بيديه كتلة غير منتظمة من الثلج لا يبدو أن بإمكانه أن يطوح بها أبعد من سنتمترات معدودات.

فقال له لوك وهو يجثم مشيراً إلى بريتاني: «هذا رائع. والآن، كما كنتُ أقول، الخدعة هي أن تضرب تحت العنق. إياك أن تجعل الرأس هدفك، فهذا خطر. هذا إلى أنك إذا ضربتها على رأسها.» واكتسى صوته صيغة الجد: «عند ذلك قد يجعلها تفرض عليك المزيد من المعكرونة.»

فأومأ برايان موافقاً، ثم سدد ضربته بكل قوته. وإذا بكرة الثلج تسقط على بعد مترين فقط بينما سقط هو على مؤخرته نظراً للجهد الذي قام به.

وهنا استغلت بريتاني الفرصة لتسديد ضربة إلى لوك أصابت كتفه وملأت ياقة سترته، وهي تصيح ضاحكة: «أظن أن لوك لا بد يعلمك أساليبه. أنظر إلى المرأة لتتعلم كيف تقوم بذلك.»

فضحك لوك وقال لبرايان دون أن يحول عينيه عن

بريتاني: «أمكث هنا، يا فتى. أظن هذه بحاجة إلى درس تتعلم منه كيف تعامل الرجال في حياتها.»

ثم كور بيديه مقداراً كبيراً من الثلج، وصوبها إلى بريتاني فأطلقت هذه صرخة عالية ضاحكة. ثم قالت مهددة وهي تتراجع إلى الخلف: «حذار، يا لوك. لا تفعل ذلك. إنني لن أصفح أبداً... آه...»

لم يكن هدف لوك صعباً. ملء قبضة لا غير من الثلج انهالت على وجه بريتاني.

نظرت هي إليه غير مصدقة، وقد امتلأت أهدابها وشعرها بالثلج. ثم قالت ببطء وقد بدت على شفتيها ابتسامة ماكرة وهي تتابع: «يبدو أنك لا تعرف مع من تتعامل.»

جمع مزيداً من الثلج. ففعلت هي الشيء نفسه ثم وقف الاثنان متواجهين يخطوان أماماً وخلفاً كهرين متوحشين يتنازعان مكاناً ما، أجاب قائلاً: «آه، أحقاً لا أعلم؟ أنا لوك ماك كول، رئيس...»

وسرعان ما كان الثلج يملأ فمه ويغشي بصره. كانت دقة اصابتها للهدف تعادل دقته على الاقل. هذه هي بريتاني التي عرفها... مرحة لعوب وخالية من الهموم. كان هذا أجمل ما يتذكره فيها، ولشد ما هو مسرور لعودتها.

قالت له مازحة وهي تعد قذيفة أخرى: «رئيس ماذا؟»

فضاقت عينا لوك: «رئيس جمعية دعونا نعلم النساء المتمردات حسن السلوك، هل تريدين أن تري الرخصة؟»

فضحكت بريتاني بصوت عال: «هل تريد أن تجعلني أسمعك؟»

«هذا ما أحبه.»

قال ذلك ببطء وهو يتقدم إلى الأمام. وقبل أن تتمكن من التصرف، كان قد وصل إليها وطرحها أرضاً على ظهرها على الثلج. ثم أمسك يديها يرفعهما فوق رأسها يسمرهما إلى الأرض. ثم ابتسم: «والآن، من أين تريدينني أن أبدأ؟»

أخذ يحدق في عينيها. كانت جذابة مغرية إلى حد لا يصدق، بشكلها البريء... فقط لو بإمكانه أن يثق بها...

ارتفع صوت برايان يقول وهو يلقي بنفسه على ظهر لوك: «مرحباً، أنتما الاثنين؟»

فقال لوك: «مرحباً، يا صغير.» ضحك وهو يستلقي على ظهره آخذاً برايان بين ذراعيه، وهو يقول: «أما كان عليك أن تحذرني أولاً؟»

فأجاب: «إنك تأخرت، ولم تكن تعطي ماما درساً في كيف تعامل الرجال أمثالنا.»

ضحك لوك ونظر إلى بريتاني التي كانت تضحك بدورها. وقال: «المسألة، يا صديقي، هي قضية رأي.»

فوقف برايان ثم جذب كم لوك، يسأله: «هل يمكننا أن نحصل على شراب الكاكاو الآن؟»

استدار لوك نحو بريتاني التي كانت ما تزال مستلقية على ظهرها، ثم سألها: «هل تريدين البقاء هنا ريثما نحضر الشراب؟ سنعود حالاً.»

فأومأت تقول: «نعم. إذهبا أنتما، أما أنا فأحتاج إلى خمس دقائق لكي أعدل سلسلتي الفقرية إلى ما كانت عليه.»

سار الأب والابن في طريقهما، بينما بقيت بريتاني مستلقية تحدق إلى السماء وعلى شفتيها ابتسامة سعيدة لرؤيتها يد برايان بيد لوك.

من كان يظن أنهما سينسجمان بهذه السرعة؟ فقد كان لوك قد قال عدة مرات أثناء اليومين الماضيين أن ليس لديه خبرة في التعامل مع الأولاد حتى انه لا يكاد يعرف كيف يتحدث معهم. وإذا به في وقت قصير للغاية، يعقد أواصر صداقة بينه وبين إبنه وكأنه يعرفه طول حياته.

كان برايان شغوفاً بلوك. كان هذا يبدو من طريقته في الحديث إليه وفي اللحاق به أينما ذهب، وفي رفضه أن يدع لوك يغيب عن بصره. كان يريد أن يكون لوك موجوداً عندما يذهب للنوم في المساء، وكذلك عندما يستيقظ في الصباح، وهكذا كان لوك ينام على الأريكة ليلاً، ثم يذهب أثناء النهار، عندما ينام برايان بعد الغداء إلى بيته حيث يغتسل ويغير ملابسه.

بالنسبة إليها، لم يكن هنالك شك في استمتاعها بوجوده عندها على الأقل بقدر استمتاع برايان بذلك. رغم أنه لم يبد أي اشارة شخصية نحوها قبل هذا النهار. فقد كان دوماً موجوداً عند حاجتها إليه. مسرات بسيطة مثل فتح علبة توابل مستعصية، أو ملاحظة برايان في حوض الحمام عندما تكون هي مشغولة بأمر آخر... وكان هذا يجعلها تتذوق ما ستكون عليه حياتهم لو أصبحوا أسرة واحدة.

ليس معنى ذلك أنها كانت تخدع نفسها. ذلك أن لوك لم يكن يظهر اهتماماً بها أكثر من أنها أم ولده. وكانت هي تعلم ذلك... وتحترم ذاك... وتكره ذاك.

قبل هذا النهار، لم يحدث قط أنه لمسها، بل كان يتجنب بكل حذر أي وضع قد يقرب بينهما.

أغمضت بريتاني عينيها وهي تتنفس بعمق. لقد كانا منذ لحظات، قريبين من بعضهما البعض. لم يكن يفصل بينهما سوى سنتمترات معدودات.

نهضت مستندة على مرفقها ومضت تنظر من فوق كتفها إلى الرجلين الوحيدين في حياتها وهما يعودان بثلاثة أكواب من الكاكاو. فوفقت ونفضت بنطلونها ثم سارت إلى أقرب مقعد.

قالت تغيظهما وهي تأخذ كوباً من برايان: «لقد تأخرتما. شكراً يا حبيبي.»

جلس لوك على الطرف المقابل من المقعد المستطيل، مجلساً برايان بينه وبينها... هل ذلك لحماية نفسه، يا ترى؟ أم لأنه كان محرجاً مما حدث بينهما قبل فترة؟

قال برايان: «يقول لك إنك تحبين الكاكاو. لقد اشتريت حلوى.»

فأخذت بريتاني تحدق في كوبها، ثم سألته: «كيف حصلت عليها؟»

«لقد أحضرها لوك من الفتاة التي كانت تصنعها. لقد منحها ابتسامة جميلة فضحكت هي وأعطته شيئاً منها.»

شعرت بريتاني بسهم من الغيرة يخترق قلبها. ولكنها أخذت تخفف عن نفسها بأن لوك عاش سنوات وحيداً، ومن الطبيعي أن يبتسم لأي فتاة جميلة يراها، ويثرثر معها. خصوصاً وهو رجل وسيم بإمكانه أن يدير رأس أي فتاة لدى مروره بجانبها.

تابع برايان: «كانت ظريفة جداً. ولكنها كانت تضع على أسنانها ذلك الشيء الفضي.»

نظرت بريتاني محاولة أن تبدد تقطيب جبينها وهي تسأله: «أهي تضع تقويماً لاسنانها؟»

«نعم. لقد قال لوك ان أولاداً كثيرين مثلها يضعون هذا، وذلك لكي تصبح أسنانهم جميلة عندما يكبرون، مثل أسناني.» وابتسم بمكر.

أولاد؟ يكبرون؟ تقويم؟ أخذت بريتاني تفكر في ذلك وهي تئن في داخلها. لقد كانت إذن تلميذة مدرسة. وهي بريتاني، كانت تشعر بالغيرة من فتاة في الخامسة عشرة!

أخذت ترشف شرابها، شاعرة بالسرور لأنها لم تفصح عن غيرتها ببعض الملاحظات اللاذعة. وبأي حق تفعل ذلك وقد سبق وأدركت أن وضعه لبرايان بينهما هو اشارة حازمة لها بأن لوك يعني أن الأمور بينهمالا يجب أن تعود إلى ما كانت عليه.

قال برايان مفكراً: «لوك.»

«نعم.»

«هل أنت...»

فتبادل لوك النظرات مع بريتاني التي هزت كتفيها تعلن عدم معرفتها.

«أنا ماذا؟»

فقطب برايان جبينه ثم قال: «هل أنت والدي؟»

ألقى بهذا السؤال ببطء وهو يرفع نظره إلى لوك. وحاول هذا أن يستجمع أفكاره، ثم سأله: «ما الذي جعلك تلقي هذا السؤال؟»

«حسناً، إن والدتي لديها صورة لك في درجها في بيتنا و...»

فغرت بريتاني فاها مذهولة: «برايان.»

«كما أخبرتني أن والدي هو رجل جميل للغاية ويعيش في مدينة أخرى. وهكذا فكرت في أنك ربما...»

حاول لوك أن يهدىء من أعصابه. هذه هي... هذه هي اللحظة المناسبة التي كانت بريتاني تكلمت عنها، ولكنه يشعر بتوتر بالغ بالنسبة إلى اعترافه بأنه والد برايان. ما أكثر جهله بالأولاد.

نظر في عيني برايان المتسائلتين، ثم قال برقة: «نعم. إنني والدك.»

كادت ابتسامة برايان البالغة السعادة أن تحطم ضبطه لأعصابه. لقد كان قلبه من الامتلاء بالحب لولده ما جعله لا يكاد يستطيع الكلام، كما جعله يدرك أن ليس ثمة شيء في العالم لا يقوم به لأجله.

قال برايان بزهو: «لقد كنت أعلم هذا.»

وابتسم لأمه التي كانت عيناها مغرورقتين بالدموع، ثم ضحك وهو يقول بكبرياء: «إن لي والداً ككل الأولاد الآخرين.»

فقالت هامسة: «نعم، نعم. إن لك والداً. فأنت مثل كل الأولاد الآخرين.»

عاد برايان يلتفت إلى لوك قائلاً: «أنا وأنت يمكننا أن نفعل كل شيء معاً.»

تردد لوك برهة، ثم ضحك، ثم أخذ يشعث له شعره باسماً: «هذا صحيح تماماً، يا صغيري. فنحن، أنا وأنت، سنكون معاً على الدوام.»

كان هذا، كما حدث نفسه مزهواً، وعداً حفر في الصخر.

* * *

همس لوك لبريتاني وهو ينحني على برايان النائم رافعاً الغطاء إلى ذقنه، همس يقول: «أليس هو أجمل صبي رأيته؟» واستقام واقفاً وهو يضحك بخجل: «إبني... إنه إبني.»

فابتسمت له. لقد لطف النور القادم من الردهة من ملامح لوك، كما أبرز ابتسامته والحب الذي تمتلىء به عيناه. لقد كان هذا يوماً عظيماً بالنسبة إليهم جميعاً. ومع أن الوقت لم يكد يتجاوز التاسعة مساء، إلا أن بريتاني كانت تشعر بالارهاق. وكان برايان متعباً للغاية بعد قضاء النهار خارج البيت ما جعلهم يتناولون عشاء خفيفاً في مطعم صغير على أن يرقدوا مبكراً. وهكذا حمل لوك برايان إلى فراشه بعد الثامنة، ثم أمضى معه وحده قرابة الساعة.

كانت بريتاني قد جلست وحدها في غرفة الجلوس، شاعرة بالوحشة إلى حد غريب. فقد كانت دوماً هي التي كانت تقرأ له حكاية قبل النوم، ثم تضعه في فراشه. وكانت هي التي تهتم بكل تفاصيل حياته. والآن، بعد أن جاء من يشاركها هذا العبء. شعرت وكأنها غريبة في هذا المكان.

كانت هذه الأفكار ما تزال تتملكها رغم أنها لن تذكرها للوك ولو بعد مائة عام. فهذا هو يومه، وهي تريد منه أن يستمتع به إلى آخر لحظة.

عادا إلى غرفة الجلوس حيث إبريق القهوة سبق وأعدته. سألته: «هل تريد بعضاً منها؟»

«نعم، فلن أستطيع النوم الليلة سواء بقهوة أم بدون قهوة. فهذا اليوم كان أورع من أن يصدق. ولا أريده أن ينتهي.»

فقالت: «هناك الغد دوماً، وبعد غد، وبعده وبعده على مر السنين.»

فتنهد قائلاً: «هذا صحيح. ولا عجب أن والدتي مجنونة ببرايان. أتعلمين أنه تكلم عنك؟ إنه صريح وأنا أعشق الصراحة.»

فضحكت وقالت: «سأذكرك بذلك عندما يقول ما يحرجك فيخرجك عن صوابك.»

«كما أخبرني بأنك تحتفظين بصورتي بجانب سريرك؟»

توهج وجه بريتاني خجلاً، ورفعت فنجان القهوة لترشف منه تغطية لما شعرت به من حرج.

ثم قالت: «لم أكن أعلم أنه رآها.» ولم تستطع مواجهة نظرات لوك فحولت عينيها عنه: «فأنا أحتفظ بها في الدرج لأنها أمر شخصي، ولم أشأ أن أواجه أسئلته عن شخصية صاحب الصورة.»

«ولكنك كنت حدثته عني.»

فهزت كتفيها تجيبه: «شيئاً قليلاً. فأنا لم أذكر اسمك أبداً.»

«أما كنت ستخبرينه عني لو لم يكن مريضاً؟»

فأخذت بريتاني تفكر فيما لو كانت الصراحة هي الأفضل في هذه الحالة. وترددت قليلاً، ثم حدقت في عينيه قائلة: «كلا.»

أجفل قائلاً: «ولماذا لا؟»

«إن لك حياتك. وكذلك أنا. وكنا نعيش جميعاً بأتم راحة. وما كنت سأعود إليك كي لا تدب الفوضى في حياتك. فقد تكون متزوجاً ولك أولاد آخرون.»

فقال بخشونة: «ولكنك كنت تعرفين كل شيء عني حيث أنك كنت وضعتني تحت المراقبة.»

شعرت بالضيق وهي تلمس التوتر في صوته، فقالت: «نعم، ولكن الظروف هي التي دفعتني إلى ذلك.»

«مثل مرض سرطان الدم مثلاً؟»

فأجابت وقد غصت بريقها: «نعم.»

«إذن، فمعنى كلامك أنه لو لم يمرض برايان لاستمريت في اخفائه عني إلى الأبد؟» وعندما لم تجب، تابع يقول بحدة ولهجة لاذعة: «ماذا لو سألك عني عندما يكبر؟ ماذا لو أراد أن يتعرف عليّ؟»

تململت بريتاني في مقعدها حتى كادت تريق قهوتها، ثم قالت بلهجة متوترة: «لا أدري. لم أبتعد بأفكاري إلى هذا الحد. كنت أعيش حياتي يوماً بيوم.»

ساد بينهما صمت ثقيل. وعادت بريتاني بنظراتها إلى فنجان القهوة بيدها، وهي تتساءل كيف تغير موضوع الحديث.

فقالت: «برايان يريد أن يزور والدتك قريباً فقد ألفها تماماً.»

وعندما لم يجب لوك، رفعت بصرها إليه. وكان ينظر إليها.

ثم قال بهدوء: «إياك أن تختفي مرة أخرى.»

لم يكن يخفي ما في صوته من تهديد. ومع أن جسد

بريتاني اقشعر من لهجته تلك، فقد شعرت بالمذلة وهي ترى الآخرين يظنون بها أسوأ الظنون وذلك بسبب ما كانت قامت به.

تابع يقول وعيناه ما زالتا مسمرتين في عينيها: «إن والدتي مجنونة ولعاً ببرايان، فإياك أن تبعديه عنها أو عني.»

أنهى قهوته ثم مد ساقيه.

فقالت: «كلا. لن أفعل ذلك.»

سكت قليلاً ثم قال بصوت منخفض: «لا أدري إن كان بإمكاني أن أثق بكلامك.»

فرغ صبر بريتاني: «لقد أخبرتك بأنني لن أقوم بأي شيء يفصل بينكما. فقط عليك أن تثق بي في هذا الأمر.»

بدا كلامها غير مقنع. (تثق بي)؟ يا لها من مزحة. ذلك أن للوك كل الحق في أن لا يثق بها، كما أن ليس لها الحق في أن تطلب منه ذلك.

فقال برقة: «أنظري إليّ، يا بريتاني، لا شك أنك تقدرين موقفي، أليس كذلك؟ لقد ائتمنتك على حياتي مرة. والآن... أنا غير واثق من أن بإمكاني استعادة تلك الثقة.»

كانت لهجة الاخلاص في صوته كافية لكي تجعل عيني بريتاني تغرورقان بالدمع. لم تكن بحاجة إلى من يذكرها بالحب الذي كان بينهما مرة، فقتلته بهربها ذاك.

وردت تقول: «إنني أعرف، وأتفهم. أظن أن علينا، نحن الاثنين، أن نتصرف بصبر.»

فأومأ برأسه واتكأ على زاوية الأريكة. لم يكن جلوسه

قريباً من بريتاني بالسهولة التي كان يتوقعها. فالأشياء الصغيرة التي تقوم بها... عطرها، طريقتها في الابتسام... كل ذلك جعل ذكريات الماضي تتدفق عائدة، ومع الذكريات كان الألم.

«أخبريني عن والدك.» قال ذلك بلهجة واقعية. ذلك انهما إذا كانا يريدان أن تقوم بينهما علاقة حقيقية، فعليهما أن يناقشا نفس المواضيع التي كانت هربت منها من قبل، وما زالت تخجل منها حتى الآن.

قالت بحزم: «لا أريد أن أتحدث عنه.»

«ولكنني أنا أريد. أريد أن أعرف كيف كانت طفولتك مع والدتك ووالدك؟ أريد أن أعلم كل شيء عن نشأتك في بيتكم.»

فتوتر فكها. وكره هو اضطراره إلى هذا الاصرار. ولكن هذه المواضيع كان يجب أن تطرق منذ سنوات.

«كان والدي متسكعاً ومحتالاً. أما والدتي فكانت تتجاهلني على الدوام ارضاء له.» ألقت عليه نظرة ثم تابعت: «لقد نشأت في مكان هو أسوأ من الجحيم.»

كانت كلماتها لاذعة، وتساءل هو عما كان سيفعل إزاء مثل هذا الغضب منذ سبع سنوات يوم كان فتياً ومثالياً. لقد استغرق منه سنوات لكي يظفر بما يزهو به الآن، من نضج وإدراك عميق. ولحسن الحظ، أن الدروس التي تلقاها في حياته ستساعده الآن على التفهم.

«هل حاولت أن تجعلي والدك يذهب للمعالجة؟»

فضحكت بمرارة: «يبدو أنك لم تحاول قط أن تقنع مدمن بأنه بحاجة إلى مساعدة.»

في الواقع، كان ثمة أمور كثيرة لا يعلم عنها شيئاً. فقد كانت الحياة في أسرة مدمنة غير مبالية، هي شيء لم يعرفه قط. وأفضل ما عليه أن يفعل إزاء ذلك هو أن يتعلم فقط.

«كيف مات والدك؟»

«أصبح ادمانه أسوأ بعد قضية المحكمة وموت والدتي. فابتدأ بإرهاق نفسه من الساعة التاسعة صباحاً ولم يتوقف حتى مات.»

«هل سبق أن أحضرت برايان ليراه؟»

نظرت إليه بعينين ضيقتين: «أبداً. فمن غير الممكن أن أعرض طفلاً على ذلك الرجل.»

أحس هو أنها تعاني من كثير من الذكريات المألمة، فحاول أن يخفف من توترها فقال لها بهدوء: «تعالي هنا، يا بيتي.»

لكن بريتاني لم تتحرك، وبقيت تحدق في فنجان قهوتها: «لوك، لا أريد تشجيعك.»

فمد يده إليها قائلاً: «إنني لا أفعل ذلك. وإنما فقط أريدك أن تأتي إلى هنا أثناء حديثنا عن هذا الأمر.»

فلم يبد عليها السرور لهذا، لكنها نهضت وجلست بجانبه وقد بدا عليها التوتر.

فقال: «استرخي، فأنا لا أعض.»

اجابته: «ليس أنت، بل أسئلتك هي التي تعض.»

فتنهد مفكراً، ثم قال: «لو كنت طلبت منك الجواب على هذه الأسئلة منذ سبع سنوات، ربما ما كنت هربت. إنني أحاول فقط أن أقوم الآن بما كان ينبغي عليّ أن أقوم به حينذاك.»

فقالت وهي تتأوه متعبة: «لقد فات الأوان. لم يعد الأمر ذا أهمية.»

«بل هو مهم إذا كان ما يزال يتعبك. وإذا كان سيقف في طريق علاقتنا.»

«علاقتنا؟»

«نعم. إن لدينا طفل ينبغي أنه نربيه. وهذا التزام مني يهمني جداً.»

نظر إليها وهي تغمض عينيها وقد بدا عليها الارهاق الشديد. وتساءل عما إذا كان عليه أن يستمر في حديثه هذه الليلة أو يدعه إلى وقت آخر.

أنقذته من حيرته بقولها: «وهو يهمني أنا أيضاً. ولهذا قمت باستشارة مصحة المدمنين. كنت أعرف أن ماضي سيقتل مستقبلي، وهكذا وجدت أنهم يقدمون عوناً لأطفال المدمنين.»

«وهل ساعدوك؟»

«نعم. لقد فعلوا.» وتنهدت مرة أخرى. «لقد استغرق الأمر بعض الوقت، ولكنني أدركت في النهاية أنني غير ملومة لأن أبي كان مدمناً. فقد كنت ضحية وليس سبباً.»

قال: «إنني مسرور لمساعدتهم تلك لك فأنا لا أظن أن هذا شيء كان بإمكانك القيام به وحدك. وفي الواقع، لا أظنني كنت سأتمكن من مساعدتك في هذا الشأن.»

فقالت: «لكي تفهمه، عليك أن تعيشه. إن هناك كثيرين يعانون من نفس عقدة عدم احترام النفس.»

ساد صمت قصير أخذ فيه لوك يستوعب كلماتها. وأدرك من نظرة إلى وجهها أن غضبها قد تبدد، دون أن تحاول

التزلف إليه. ولكن هذه البراءة زادتها إعجاب في نظره. لقد كان يشعر دوماً بالرغبة في حمايتها وما زال، رغم أنها أثبتت للعالم منذ زمن طويل أنها قادرة على رعاية نفسها.

قال: «كلما شعرت بالحاجة إلى التحدث إلى شخص ما، تعالي إليّ. فإذا لم يكن لدي جواب، فسأجد من لديه ذلك.»

التفتت إليه هامسة: «شكراً.» وتملكه شعور غريب بأنها ما زالت زوجته فعلاً، وأنها ستكون موجودة كلما استيقظ من النوم صباحاً...

كان بحاجة إلى عودة علاقتهما السابقة والتي افتقدها عبر السنين. لم تتمكن امرأة أخرى قط من ملء الفراغ الذي تركته بريتاني في نفسه. لقد كانت واحدة من مليون. إنها له.

نظر إليها طويلاً، وتشابكت نظراتهما. وأخبرته عيناها،دون كلمات، بشعورها نحوه. ولكن مهما كانت مشاعرها فهي لا تقاس بما يشعر هو به نحوها الآن. إنه يريد بريتاني أكثر من أي شيء في العالم. كل ما كان ينويه من البقاء بعيداً عنها، وأن يبقي علاقتهما أخوية فقط لأجل ابنهما برايان، كل ذلك لم يعد له الآن أهمية إزاء ما اخذ يشعر به الآن نحوها.

كان يريدها، الآن. وكانت هي أيضاً تريده. وذلك كل ليلة ابتداءً من الآن.

وجمد في مكانه. ذلك أنها قد لا تكون هنا عندما تنتهي محنة برايان. فكيف يمكنه أن يتأكد، عند ذاك، من أنها ستبقى موجودة كل صباح من الآن فصاعداً؟ كان الأمر كله مسألة ثقة.

وهو لم يكن يثق بها.

ببطء، أشاح بوجهه عنها واعتدل في جلسته محاولاً أن يتجنب ما بدا في عينيها من اضطراب.

«لوك؟»

كان صوتها مثقلاً بالمشاعر. ولكن كل ما استطاع أن يفعل، أن يعود إلى جلسته السابقة في زاوية الأريكة، محاولاً أن يعيد أفكاره إلى الواقع.

قال وهو يجاهد في كبح رغبته: «إنني آسف، أظن علينا أن نسيطر على مشاعرنا.»

فقالت مترددة: «أ... أظن ذلك. إنني لا... الأفضل أن أذهب لأرى برايان. سأراك في الصباح.»

نهضت واقفة، ودارت حول المنضدة فكادت تقع لسرعتها. وعندما اختفت في الردهة، اسند لوك رأسه بعنف إلى مسند الأريكة خلفه وهو يلعن قلة ضبطه لاعصابه.

إن وجودهما معاً ليلاً نهاراً لا يساعده في ذلك.لقد شعر بذلك منذ مدة. ولكن كيف يمكن أن تسير علاقتهما دون اتصال، حتى ولو كان ذلك لأجل ابنهما؟

ربما يكون ذلك بتعيين العقبات التي تقف في سبيل ذلك. الأولى، موضوع برايان،والثانية قضية الثقة، وهناك المستقبل، وهو ذو أهمية أكبر.

الطريقة الوحيدة هي حل هذه العقبات واحدة بعد أخرى، بصبر وسهولة.

سمع لوك صوت خطوات بريتاني وهي تخرج من غرفة برايان ثم تقف مترددة في الردهة. وتساءل عما إذا كانت

ستعود إلى غرفة الجلوس. ولكنه سمع بعد لحظات صوت باب غرفة نومها يغلق فادرك أنها اختارت الأمن هناك.

تنهد وهو يمر بأصابعه في شعره. لقد مضى ما يقرب الاسبوعين الآن منذ عادت إلى حياته. بدا له ذلك وكأنه حدث منذ سنوات... أو لعله فقط منذ دقائق.

بدا وكأن رأسه سينفجر من كثرة التفكير. فألقى بنفسه على الأريكة معداً نفسه لليلة طويلة أرقة كان يمكن أن يمضيها في غرفة بريتاني لو أنه فقط استطاع التخلص من شكوكه بها.

الفصل السابع

«ماما، ماما، انظري ما احضره لي والدي.»

فجففت بريتاني يديها بمنشفة الأواني، ثم التفتت إلى ابنها الذي كان دخل إلى المطبخ حاملاً حصاناً بلاستيكياً جديداً بني اللون، بينما الحصان الذي كانت اشترته له كان أبيض، وكان هذا مجهزاً بكل الأجراس والصفارات كما انه يصهل أيضاً.

فقالت وهي تمر بيدها على رأسه: «انه رائع، هل لعبت اليوم؟»

فأجاب وهو يخلع معطفه: «آه، نعم.»

أخذته بريتاني منه، ثم لحقت به إلى الردهة حيث كان لوك واقفاً يخلع سترته. كان قد اخرج برايان معه إلى النزهة عصر هذا اليوم، وذلك ليبدد بعض التوتر الذي تملكه منذ أجرى الفحص لدمه، لقد كان ذلك منذ ثلاثة اسابيع تقريباً، ومع ان برايان لم يكن يعلم شيئاً عن ذلك، إلا ان الانتظار قد جعل من والديه شبه مجنونين.

مد برايان يده بالحصان لتراه: «لقد ذهبنا إلى الحديقة العامة، ثم حديقة الحيوانات وبعد ذلك إلى متجر الألعاب، قال والدي ان بإمكاننا ان نشتري كل الجياد، طبعاً ليس كلها مرة واحدة.»

«كلا، بالطبع.» قالت ذلك وهي تشعر بالشفقة على لوك والذي كانت تعلم انه لا يمكن ان يرد لبرايان طلباً.

ناولت لوك معطف برايان فعلقه هذا على المشجب ثم سألها وهو يفرك يديه ببعضهما: «هل استمتعت بوقتك هنا وحدك؟»

«بالتأكيد وقد صنعت فطيرة التفاح وكيك الشوكولاتة.»

فهتف برايان وهو يسيّر حصانه على المنضدة: «ياه... لتعطيه للمحتاجين.»

جلس لوك على الأريكة وهو يقول: «اننا نحن محتاجون. انسيت ان لدينا موعداً مع الهمبورغر؟»

«نعم.» ثم ركض مغادراً الغرفة.

فجلست بريتاني على كرسي بذراعين وهي تقول: «والآن اخبرني بما قلته له بالضبط عما نحتاجه جميعاً.»

فهز لوك كتفيه قائلاً: «لا شيء مهم، لقد تحدثنا فقط عن... انك تعرفين.»

أجابت: «كلا، لا اظنني اعرف شيئاً، اخبرني.»

نظر إلى النافذة متردداً وقد بدا عليه الضيق من هذا السؤال: «عن الحب.»

فنظرت اليه بدهشة: «الحب؟ كيف وصلتما إلى هذا الموضوع؟»

فقال مغيراً الموضوع: «هل يعجبك مطعم جوي؟»

فقالت ضاحكة: «لوك، اخبرني بالحقيقة، كيف طرقتما انت وبرايان، موضوع الحب؟»

التفت اليها وتنفس بعمق: «كنت اتحدث اليه عن مبلغ حبي له.»

«ثم...؟»

«ثم سألني عن النوع الآخر من الحب.»

«أوه...»

فاستقام في مقعده، وألقى عليها نظرة طويلة: «لا استطيع البوح باكثر من هذا حالياً، لا بد انك فهمت طبعاً.»

فبادلته نفس النظرة وهي تقول: «لقد فهمت، لا بأس، سأسأل برايان.»

«انه لن يخبرك أبداً.»

«ولكن فطيرة التفاح وكيك الشوكولاتة تقولان انه سيخبرني.»

جلس لوك دون حراك، ومالبث ان ضحك قائلاً: «انا نفسي ساخبرك اذا كان هناك فطيرة تفاح وكيك الشوكولاتة.»

فضحكت بريتاني ونهضت متجهة إلى المطبخ لتلقي نظرة على الفطيرة، ان لوك يخبىء عنها شيئاً. ولم يمنعها من الالحاح عليه بالسؤال، إلا تحسن العلاقة بينه وبين برايان يوماً بعد يوم ما جعل شعوراً بالغيرة يتملكها احياناً، شاعرة بالاهمال لها.

وما لبثت ان نبذت هذه الأفكار وهي تسحب صينية الفطيرة من الفرن وتضعها جانباً لكي تبرد، لقد قابل برايان اخيراً جده والد لوك، فينسنت ماك كول، الطويل القامة ذا الروح الفكاهية السريعة الإلفة، وقد شغفه برايان حباً، وتقبله دون سؤال كما يفعل أي محب واثق، في الواقع إذ تفكر بذلك كانت أسرة ماك كول بالغة الانفتاح والثقة بمن تعتبره جديراً بذلك.

ذاقت قطعة ضئيلة من الفطيرة فاحرقت لسانها، ولكنها لم تهتم، لا عجب في ان يدهش اختفاؤها أسرة ماك كول. انها تدرك الآن ان هذا كان بمثابة صفعة على وجوههم بعد

ان كانوا عاملوها كفرد في أسرتهم. ومع ذلك فقد رحبوا بعودتها بذراعين مفتوحتين، ذلك ان رغبة النسيان والصفح لديهم كانت اقوى من كبريائهم، لقد كان بإمكان بريتاني ان تتعلم الكثير من اناس كآل ماك كول.

أطفأت بريتاني الفرن وهي تتنهد، ان لوك وبرايان بانتظارها متلهفين، ومن الغريب انها لم تر برايان قط من قبل وهو يأكل بمثل هذه الشهية التي تملكته في الأسبوعين الأخيرين، لقد ازداد وزنه في الواقع، كما ان لون وجهه قد تحسن عما كان عليه لسنوات، وبينما كان من قبل صبياً رزيناً جاداً يلتزم جانب والدته للحماية، إذا به يصبح الآن ضاحكاً متألق العينين.

كل ذلك هو نتيجة الحب الذي أبداه له لوك وأسرته، صحيح انها حاولت القيام بكل ما في وسعها لأجل برايان، ولكنها كانت وحدها، بينما الطفل يحتاج في حياته إلى والدة ووالد، وبما انها هي لم يكن لديها والد ووالدة، لم تهتم بالتفكير في قضية حجب برايان عن والده.

ونادت تقول: «هل انتما جاهزان؟» ضحكت عندما رأتهما واقفين عند الباب، وأجاب برايان مبتهجاً: «نعم، اتعلمين؟ والدي يقول انه وجدي سيأخذانني إلى حيث امتطي حصاناً حقيقياً.»

فنظرت بريتاني إلى لوك وقد جرحت مشاعرها لأنهم لم يستشيروها في ذلك، وسألته: «هل سيكون آمناً؟»

فهز كتفيه: «تقصدين ان بإمكانه ان يستقر على صهوة الحصان؟ ربما لا، ولكن هذا هو جمال ركوب الخيل اثناء فصل الشتاء، لأن الراكب إذا وقع فسيكون ذلك على رقائق

الثلج.» وابتسم لها: «لن يحدث شيء لبرايان على ظهر الحصان.»

فقالت عابسة: «انا لست واثقة بالنسبة لهذا الأمر، ولست واثقة مما إذا كنت سأسمح له بالذهاب.»

«لقد فات الأوان لذلك، فقد رتبنا الأمر بحيث نذهب السبت.»

شعرت بغيظ بالغ، وسألته بحدة: «وإذا انا قلت كلا؟»

ضاقت عيناه وهو يقول: «لقد رتب الأمر وانتهى.»

فسكتت عن قول المزيد بعد ان لاحظت ان برايان يتابع حديثها باهتمام غير عادي.

ثم سألها باهتمام: «هل يمكنني الذهاب، يا ماما؟»

أشاحت بوجهها مدركة انه لم يعد لديها خيار في الأمر، ذلك ان ثمة قراراً وحيداً مقبولاً من برايان، وهو تأمين لوك على حياة ابنها وهذا ما كان شيئاً عسيراً بالنسبة اليها.

وعادت تلتفت قائلة: «طبعاً، يا حبيبي، وكيف أرفض ذلك؟»

فابتسم برايان واحتضنها بشدة، ومن فوق كتفه، نظرت إلى لوك بمرارة تنبئه بصمت عن عدم رضاها، ولكن بدلاً من ان يقبل هو تحذيرها من القيام بمثل هذا العمل مرة أخرى، أرسل اليها تحذيراً منه... وهو انه لا ينوي الركض اليها طالباً منها القبول وذلك في كل مرة يخطط لشيء مع ابنه.

تلقت هي الرسالة صريحة واضحة فوقفت وساقاها ترتجفان. كانت قد بدأت تفقد سيطرتها على اعصابها، والسيطرة على الأعصاب هي التي ساعدتها في متابعة العيش حتى الآن، أمكست حقيبتها وهي تستمع إلى ثرثرة

برايان عن هذا الحدث القادم وهما يسيران نحو سيارة لوك، وكانت تحاول التركيز على ما كان يقول فيمنعها من ذلك الإنزعاج المتنامي في نفسها.

وعندما انهيا غداءهم الخفيف، لم يكن ذلك الإنزعاج قد تبدد، وإذ لم تستطع كظم ما تشعر به من الضيق اكثر من ذلك، اطمأنت إلى ان برايان مازال سعيداً في مقعده بجانب النافذة قبل ان تزيح بقية طعامها جانباً وهي تخاطب لوك قائلة: «لوك، اظن علينا ان نتناقش في...»

فقال بحزم: «انني لن اتراجع، ان برايان سيذهب إلى النزهة على صهوة الحصان وانتهى الأمر، فأنا لن أخيب أمله، وكذلك والدي.»

فعضت شفتها، لم تكره فقط مقاطعته لها وهي تتكلم، وانما أيضاً ان يجعلها تبدو وكأنها ناكرة للجميل، وقالت: «كل ما اقوله هو انني أريد ان تستشيروني قبل ان تقرروا أمراً كهذا.»

«ولماذا؟ لكي تعارضي ما اقترحه؟ عليك ان تتعلمي كيف تشاركينني فيه، يا بريتاني، فأنت تعلمين ان من المستحيل ان افعل أي شيء يؤذيه.»

ازداد غضبها رغم انها افلحت في ستره، قالت وقد اطبقت اسنانها غيظاً: «اعلم هذا، ولكنني فقط أريد ان تسألني، وهذا كل شيء.»

«سأحاول، ولكنني لا اعدك، ذلك ان ثمة اشياء تحدث فجأة يكون عليّ فيها ان اقرر خطة ما في غيابك، وهذا ما سيحدث من الآن فصاعداً.»

أشاحت بوجهها عنه ومضت تراقب برايان وهو يطعم

حصانه سمكة مقلية، وقد تملكها الخوف من ان لا تتمكن أبداً بعد الآن من استعادة السيطرة على اعصابها، وجعلها هذا التفكير تشعر بالعجز وهو شيء لم يستطع مرض بريان نفسه ان يسببه لها، فأن تبقى تحت رحمة المرض، هو شيء والبقاء تحت رحمة رجل قوي الإرادة والحزم، هو شيء آخر. لقد كانت امضت طفولتها تحت رحمة والد مدمن، ورغم ان لوك يختلف عنه اختلاف الليل والنهار، إلا انها اعتادت على ان تكون الحاكمة بأمرها مدة سنوات. الآن دون ان يعترضها احد ما جعل فكرة المشاركة بالغة الصعوبة بالنسبة اليها.

«أرى ان بإمكاني ان أدعك ترتب كل الأمور إذا انت كنت حذراً، فنحن على كل حال لن نمكث وقتاً طويلاً في هذا البلد.»

فسألها بحدة: «ماذا تعنين بذلك؟»

بادلته النظرات وشعرت بثقتها بنفسها تعود اليها، لقد كان لها السيطرة حيث كانت تعيش مع ابنها، وفي المدة التي سيمكثان فيها في كالغاري، وليس للوك، واجابته: «اعني اننا سنعود إلى فانكوفر بعد ان ينتهي نقل مخ العظام لبرايان، فوقتنا هنا هو محدود، ان لك الحق في التصرف بالنسبة إلى برايان كما تشاء حتى نغادر هذا البلد.»

فقال: «كلا، فأنت لن تأخذيه من هنا.»

لم تعجبها لهجته والتي كانت تنبيء بعزيمة فولاذية ورغبة في القتال، فقالت: «طبعاً سأ...»

لكن الوعيد في صوته اسكتها وهو يقول: «إياك حتى ان تفكري في ذلك، فأنا لا أريد ان افقد ابني مرة أخرى.» ونظر اليها بعينين نفاذتين.

فسألته بصوت خافت: «ماذا تريد ان تقول بالضبط؟»

«وماذا تظنين انت؟»

ازدردت ريقها بصعوبة دون ان تستطيع تحويل نظراتها عن نظراته. وكبحت جواباً متحفزاً لتقول بصوت هادىء: «اظن ان علينا إرجاء هذا الموضوع إلى وقت آخر، فهو شيء لا يمكننا البت فيه في هذه اللحظة.»

أشارت إلى بريان ليأتي إلى مائدتهما، ولكنه قبض على معصمها، عندما نهضت بشدة جعلتها تشهق وهي تنظر إلى وجهه، وكان هو يقول بصوت خافت: «لقد وثقت بك مرة فلا تحاولي مثل ذلك مرة أخرى.»

وقفت صامتة عدة دقائق، ولم تتحرك الا عندما عاد برايان، لقد شعرت بيد لوك تطلق معصمها ولكن قوة قبضته مازالت تؤلم معصمها، تذكرها بأن ما يريده لوك ماك كول لا بد ان يحصل عليه. وكان يريد برايان.

• • •

طال الجفاء بين لوك وبريتاني قرابة الخمسة ايام والذي كان سببه اخذه لبرايان ليتنزه على صهوة جواد.

عندما دخل إلى الشقة يوم الجمعة التالي، اخذ يتذكر ذلك الصباح الذي كانوا ذهبوا فيه إلى الاسطبل، وكيف كان الإضطراب يتملكها، وكانت تريه عدم رضاها وذلك برفض النظر في عينيه مباشرة وقصر انتباهها على برايان وقد افترقا اخيراً مصراً على ان برايان، إذا لم يذهب في الحال فسيفوته درس الركوب، ثم جذب الصبي من بين احضان والدته برفق، عند ذلك فقط أدرك مبلغ عمق خوف بريتاني من

ان يحدث لابنها حادث تفقده فيه، وذلك اثناء كفاحها المرير ذاك في سبيل إنقاذ حياته من المرض.

لم يستخف بقلقها ذاك، فربت على كتفها يطمئنها ويعدها بانه سيحافظ على سلامة برايان كما يحافظ على عينيه، ولكنها ألقت عليه نظرة ذاهلة لا تكاد تعي وجوده، ثم أومأت برأسها وهي تستر لهفتها بابتسامة عابسة لابنهما.

لم يكن يعلم ما اذا كانت صفحت عنه لإصراره ذاك، ولكنه كان يعلم بانه سيقوم بذلك مرة أخرى مجازفاً بالعواقب. انه يسمعها الآن تهمهم في المطبخ. وضحك في سره، انه يهتم بمشاعرها ولكنه يريد ان تكون له الحرية بالنسبة إلى برايان، إذا كان يريد ان يملأ مركزه بصفته والده.

أخفى الهدية وراء ظهره وهو ينادي: «بريتاني.»

فأجابته: «اهذا انت يا لوك؟ لقد عدت مبكراً، كنت اظن الاجتماع سيطول اكثر.»

ابتسم ابتسامة ذات معنى، ثم أبرز من وراء ظهره باقة أزهار: «هنئيني.»

فتألقت عينا بريتاني: «هل انت... اتعني... آه يا لوك، هل حصلت على العقد؟»

فقال مزهواً: «موافقة مبدئية.»

«آه، يا لوك، كم انا فخورة بك، مبروك.»

فنظر اليها طويلاً، كانت تبدو نحيلة ضئيلة الجسم، وعطرها الخفيف الذي يحمل شذا الأزهار اليانعة، يدغدغ حواسه، وابتسامتها واسعة مشرقة كما كانت عيناها تتألقان زهواً في هذه اللحظة كان هو محط اهتمامها.

قال لها بصوت خافت: «ربما علينا ان نحتفل بالمناسبة كما ينبغي.»

فبدا عليها التفكير: «ربما علينا ذلك.»

«أين برايان؟»

«عند الجيران مع سوزي.»

«يبدو انها فرصة جيدة لكي...»

فارتفع جفناها ببطء: «لكي ماذا؟»

فسكت يفكر في الخطوة التي كان على وشك ان يخطوها، وكانت بريتاني تنتظر مقطوعة الأنفاس، وفجأة اخذ يتساءل عما اذا كان ما يفكر فيه هو حركة ذكية.

هل يجتاز الخط أم لا؟ وحدث نفسه بأن عليه ان يفكر في ذلك جيداً، وربما من الأفضل ان لا يورط نفسه حتى...

نظر في عينيها وهو يجيب: «لكي نفعل هذا.»

لقد كان نسي كم هي حلوة وناعمة الملمس ان السنوات لم تنقص من جاذبيتها، ولا غيرت من مبلغ شوقه اليها.

لقد كانت دوماً امرأة مثيرة للغاية حتى دون ان تحاول ذلك.

وهمست بصوت مثقل بالرغبة: «آه، يا لوك، كم اشتقت لك، وافتقدتك كثيراً.»

«اعلم ذلك، وقد افتقدتك انا أيضاً.»

فقالت: «وانا مازلت أريدك.»

كانت تشجعه على نسيان ما عاهد عليه نفسه من ان يبقي علاقتهم اخوية إلى ان يصفح عن ماضيها.

وهمس يقول: «اخبريني عما تريدينه يا بيتي.»

فهمست تجيبه: «أريد حبك، أريدك ان تعيد الأمور بيننا كما كانت من قبل.»

إزاء كلماتها العاطفية الرقيقة هذه، سرت البرودة في كيان لوك، انها تطلب منه أن ينسى الأيام المرة ويعيد الأيام الحلوة، وهذا كما يعلمان هما الاثنين، لن يحدث أبداً، لقد ذهبت السعادة التي شملتهما في فتوتهما، فقد غيرها الزمن والظروف، لكنه يتمنى لو يتمكن من ان يلقى بحذره هذا جانباً، ويطلق العنان لرغباته مع هذه المرأة الوحيدة التي احبها حقاً، ولكن لأنه يعلم ان تلك المشاكل التي لم تجد حلاً بعد ستعود إلى الظهور على الدوام، فقد تردد، مقاوماً الرغبة التي يشعر بها نحوها والتي تستلزم مستوى من الثقة لا يستطيع ان يشعر بها نحوها.

نظر إلى وجهها المنتظر، ثم هز رأسه وهو يهمس قائلاً: «لا استطيع.» وتردد لحظة طويلة، ثم ابتعد عنها، وهو يقاوم الألم الروحي الذي يحس به.

«انني آسفة...»

«دعي عنك هذا الشعور...»

فاطلقت ضحكة لا بهجة فيها ثم قالت بحزم: «حسناً، لن يحدث ذلك.»

فقال بهدوء: «بريتاني انه ليس ذنبك، ما كان لي ان أدع الأمور تخرج عن سيطرتي، ولكن مشاعرنا كانت محتدمة دوماً.»

فقالت: «اشعر بأنني حمقاء... مراهقة حمقاء...»

فهمس: «انها ليست جريمة ان نتذكر ما كان بيننا. فقد كان ذلك شيئاً غير عادي.» وتنفس بعمق، «ولكن ذلك لن يعود أبداً كما كان، هذا غير ممكن.»

أغمضت عينيها بعنف، ثم قالت بصوت مرتجف:

«اعلم، اعلم.» ثم فتحت عينيها فتدحرجت دمعة على خدها.

فمد لوك يده يمسح دمعتها تلك وهو يتمنى لو يستطيع ان يقول الكلمات التي تتمنى هي سماعها، ولكن هذا ليس بإمكانه، ويؤلمه ان يعترف بذلك حتى لنفسه.

وبدلاً من ذلك قال: «ما رأيك في ان تصنعي إبريقاً من القهوة القوية تنسينا ما حدث؟ وسنتحدث عن أمور عادية.» واطلق ضحكة مغتصبة وهو يتابع: «مثل العقد الذي نلته لتوي.»

فنهضت ومدت يدها تأخذ باقة الأزهار، متجنبة النظر في عينيه وهي تتبعه إلى المطبخ حيث جلس إلى المائدة الصغيرة، ثم سألها محاولاً ان يخفي رغبته التي مازالت قوية نحوها: إذن، برايان عند الجيران؟»

أجابت: «نعم.» قالت ذلك وظهرها إليه، حيث استغرقت دقيقتين في تنسيق الأزهار، ثم اخذت في فرم قبضة من الخضر قطعاً صغيرة ووضعها في طبق صغير وهي تقول: «مسكينة سوزي، اظنها تعلمت عن شؤون الخيل من مدة اسبوع ما تتعلمه ابنة الخمس سنوات طوال حياتها.»

فضحك لوك من اعماق قلبه، فقد ملأت صورة برايان قلبه بالزهو، وقال: «انه ابني حقاً، فهو منذ الآن محطم قلوب النساء.»

أجابت وهي تضع طبق الخضرة على المائدة: «لا أرى ذلك يعجبني.»

فضحك وهو يأكل: «تعودي على هذا، ان برايان سيصبح عندما يكبر مثل والده العجوز الحبيب.»

«إلا اذا انا استطعت تحويله عن ذلك.»

«وماذا تريدين ان تغيري في شخصي أنا؟»

نظرت اليه وعيناها تلمعان: «حسناً، أولاً، اريد ان اغير طريقتك في... آه، فلندع هذا... ليس لدينا وقت.»

رفع حاجبيه بحدة، كانت تغيظه ما خفف من الحرج الذي تملكه بعد ان كاد يفقد السيطرة على نفسه منذ فترة.

قالت له: «والآن اخبرني عن الاجتماع هذا النهار.» بقي لوك ذاهلاً لحظة، ومالبث ان حول افكاره عائداً إلى الواقع، فأخذ يفيض في شرح تفاصيل العقد الذي لم يظن قط انه سيرتاح للإدلاء بها لأي شخص خارج المكتب، وكانت اسئلة بريتاني دقيقة ذكية، لقد اصبحت امرأة عملية تماماً مع مرور السنوات، ما وجد معه سروراً في مناقشة اعماله معها.

قالت وهي تلقي نظرة إلى ساعتها: «عليّ ان احضر برايان، فقد كنت وعدت والدة سوزي بان أذهب لأخذه الساعة الثانية والنصف.»

فقال وهو ينهض: «لا بأس، سأحضره انا. ضعي القهوة على النار لأتناول فنجاناً حين أعود، وبعد ذلك عليّ ان اذهب إلى المكتب.»

فوافقت على ذلك، وهكذا غادر الشقة إلى الشقة المجاورة متلهفاً إلى رؤية برايان، ولم يكن قد تعرف إلى والدة سوزي من قبل، ولكنه كان سمع من بريتاني انها شابة رضية الخلق تماماً، وانها مسرورة لزيارات برايان لبيتها ما يجعل ابنتها هادئة، وعندما فتحت له المرأة، قدم لها نفسه باسماً: «مرحباً، انني لوك ماك كول وقد جئت لآخذ برايان.»

ابتسمت له المرأة: «مرحباً، ادخل، ان الطفلين في غرفة سوزي.»

فسألها: «أرجو انه كان صبياً طيباً.»

«مثل الذهب، هو وسوزي يمضيان وقتاً طيباً ويمكنهما ان يستمرا بعض الوقت معاً، هل لك في فنجان قهوة؟»

«كلا، شكراً، فأنا لا اشربها مطلقاً، آسف، إذ عليّ ان آخذه الآن.»

قبلت رفضه المهذب دون تعليق وذهبت إلى الردهة تنادي برايان، وبعد لحظات جاء يجر خلفه حصانه ومعه السجادة وسوزي خلفه.

قالت والدة سوزي: «احضره دوماً، انه صبي حبيب.»

قال برايان لوالده وهو يسير معه: «كلا، انا لست حبيباً، انا رجل مثلك.»

فضحك لوك وقال وهو يدخل شقتهم: «انك طبعاً رجل مثلي، يا حبيب.»

فركض برايان نحو المطبخ ضاحكاً، وهو يتجه إلى حيث صندوق العصير والكعك، ورفعت بريتاني عينيها من حيث كانت تجلس على الأريكة تقرأ في مجلة وتحتسي القهوة: «القهوة هناك، كيف كان الأمر مع برايان؟ هل عارض في مغادرتهم؟»

أجاب وهو يجلس بجانبها: «كلا، مطلقاً، بالمناسبة، عندما ترين والدة سوزي اخبريها بأنني أكره القهوة، من فضلك.»

فنظرت اليه مفكرة: «لماذا؟ انك تحب القهوة. فماذا حدث؟ هل طلبت منك الخروج معها لتناول القهوة؟»

«كلا بالطبع، لقد عرضت ذلك عليّ في شقتها فقط.»

سكب لنفسه فنجاناً وضع فوقه القشدة والسكر ثم جلس بجانبها، وبنظرة سريعة إلى بريتاني رآها قد عادت إلى مجلتها مستغرقة في القراءة، وأخذ يراقبها عدة لحظات ولكنها بدت غافلة عنه.

وإذ شعر بالإهمال، سألها: «ماذا تقرأين؟ هل هو شيء يتعلق بالتبرج؟ أم الطبخ؟»

أجابت: «انها فقط مقالة قصيرة عن الحب في التسعينات.»

فأومأ، ومضى يرشف قهوته بينما عادت هي إلى القراءة، واثناء انتظاره، اخذ ينظر إلى صورتها الجانبية، معجباً بنعومة بشرتها والرقة في ملامحها، لقد عرف قبلها نساء كثيرات، ولكن لم تكن واحدة منهن تمثل رأيه في الجمال الحقيقي كما تمثله بريتاني، كما انها لم تكن جميلة الوجه فقط، بل كانت ذات طبيعة محبة جعلته يريد ان يمضي معها بقية حياته، دون غيرها من النساء.

لقد ادهش لوك ان يرى نفسه وقد فقد اهتمامه بالنساء الأخريات، ووالدة سوزي هي مثال لذلك، إذ ليس فقط انه لم يستطع ان يتذكر لون شعرها أو ماذا كانت ترتدي، بل كان واثقاً من انه لن يستطيع تمييزها بين جمع من الناس، ويبدو ان تركيزه الداخلي قد انحصر في بريتاني إلى درجة لم يعد يستطيع تصور نفسه مع امرأة أخرى.

ملأه هذا التفكير دفئاً إلى ان خطر بباله ان بريتاني ربما لا تبادله شعوره.

قال دون تفكير: «في الواقع، ان خروجنا... اعني

خروج كل منا مع شخص آخر، هو شيء ينبغي ان نناقشه معاً.»

كان متلهفاً إلى ان يسألها ان كانت قد اتخذت لها صديقاً اثناء السنوات الماضية. راجياً ان تخبره انها لم تهتم باتخاذ صديق وليس لها من ينتظرها.

لم تصدق ما سمعته اذناها، أتراه يعني انه يسمح لها باتخاذ صديق؟ رغم انهما معتبران زوجين؟ ام انه يقصد معرفة ما اذا كانت قد اتخذت اصدقاء اثناء السنوات الماضية؟ وهل يريد بهذا ان يخبرها بأنه يريد ان يتابع مصادقة نساء اخريات؟ رغم انه، كما بدا لها، مازال يشعر نحوها بانجذاب بالغ؟ حسناً، اذا كان هذا هو الأمر، فانها لن تعترف له ابداً بتلك المرة أو المرتين اللتين خرجت فيهما مع اصدقاء فكان شعورها، آنذاك، حزيناً للغاية، وذلك طوال السبع سنوات التي مرت ذلك انها تأكدت من ان ليس ثمة رجل في العالم يمكن ان يحتل قلبها عدا لوك.

وقالت تستدرجه: «اتعني ان بإمكاني ان اخرج مع صديق وانك اثناء ذلك تجلس مع برايان إلى حين عودتي؟»

«نعم، بالتأكيد، ساعة تريدين.»

فقالت باسمة: «شكراً لهذا التسامح منك، سيكون شيئاً جميلاً إذ اعود إلى الخروج مع الأصدقاء مرة أخرى.»

سكت لوك لحظة ثم سألها: «هل تخرجين كثيراً؟»

«آه، بالطبع، على الدوام، فأنا لا اكاد امكث في البيت.»

«آه، اهكذا إذن؟»

«وانت؟»

فقال بحزم: «آه، نعم. على الدوام.»

«هل لديك صديقة خاصة.»

فهز رأسه نفياً: «كلا، وانت؟»

لاحظت انه مهتم بجوابها، ولكن قبل ان تقول شيئاً، عاد برايان من المكتب، وسرت بريتاني لهذه المقاطعة ليس فقط لأنها نجت من الاعتراف بحالة حبها له المحزنة، ولكن شيئاً من الغموض في شخصيتها لا يضر بموقفها.

وركزت اهتمامها على برايان تسأله: «كم كعكة أكلت؟»

«اثنتان.»

فقالت تحذره مازحة: «انني اعرف كم كان منها في الصحن.»

رفع عينيه إلى السقف وقال: «آه، تقصدين ان ذلك مع الكعكة التي أكلها حصاني، ثلاثة.»

فهزت رأسها قائلة: «ما الذي سافعله بك، ايها الفتى؟» ومدت يدها اليه، ولكن جرس الهاتف تصاعد هذه الأثناء.

ورفعت السماعة: «الو؟»

«اعطني بريتاني هدسن، من فضلك.»

فانتفضت بريتاني على الفور واتجهت عيناها إلى لوك: «انا بريتاني.»

«مرحباً، هنا الدكتور كارسون في العيادة.»

غصت بريقها وهي تتشبث بالهاتف: «نعم؟»

انها اللحظة التي ينتظرونها جميعاً، واخذ قلبها يخفق بجنون.

«لا ادري ان كان بامكانكما، انت والسيد ماك كول، القدوم إلي في العيادة غداً.»

فسألت بحدة: «لماذا؟» حدثها قلبها بأن الأمر سيء، هكذا

حدست من لهجة الطبيب، ثم نظرت إلى برايان ومنه إلى لوك، وفهم هذا فأرسل برايان على الفور إلى المطبخ ليغسل الأواني، بينما كان الطبيب يقول: «افضل ان احدثكما بالأمر شخصياً.»

فقالت بحزم: «كلا، اخبرني الآن.»

تردد الطبيب وهو يتنهد مفكراً، وسمعت هي خشخشة الورق وادركت انه يشاور نفسه عما اذا كان يبلغها نتيجة فحص دم لوك، في الهاتف، سألته وهي تجاهد في تمالك نفسها: «اخبرني.»

وفجأة تلقت الجواب فدب الوهن في جسمها والتقت عيناها بعيني لوك وهي لا تكاد ترى وجهه، وهمست: «اتعني ان نتيجة فص دم لوك هي سلبية؟»

قال الطبيب: «هذا صحيح، ان دمه غير ملائم.»

الفصل الثامن

حدق لوك إلى ابنه النائم فشعر بانقباض في قلبه، لم يستطع أن يتصور أنه سيفقده. ليس الآن ليس قبل أن يكبر ويراه رجلاً ولديه أولاد.

مدّ يده يمر بها على أحد الجوادين البلاستيكيين اللذين بجانب فراشه، كان الخبر الذي تلقاه لوك بأن دمه غير ملائم، كان ذلك كافياً لكي يحمله على الاستسلام. ذلك أن أمل بريتاني كان أقنعه بأن الأمر سينجح، وأن الأسوأ قد انتهى بينما في الحقيقة كان آتياً في الطريق.

أطفأ المصباح الذي بجانب السرير، ثم غادر الغرفة رافضاً أن يتصوّر حياة من دون برايان. كانت الساعات التي مضت منذ تلك المكالمة الهاتفية مع الدكتور كارسون، كانت مثقلة بالتوتر، رغم أنه وبريتاني، قد حاولا جهدهما اخفاء هذا عن برايان. فقد كان الصبي يثرثر متحمساً كعادته، وهو يطلب قضاء الوقت مع لوك ثم هتف بصوت عالٍ عندما قال إنه لن يذهب إلى عمله بل سيأخذهما إلى السينما.

كان هذا حلاً ممتازاً ما دام يمكّن الوالدين من الجلوس صامتين محاطين بالظلام يتابعان أحداث فيلم الأطفال بأعين لا ترى. وفي طريق العودة كان برايان مبتهجاً للغاية وهو لا يكف عن الثرثرة بأنه يريد أن يصبح نجماً سينمائياً حين يكبر.

هذا إذا هو كبر... وتملك الألم لوك وهو يفكر في ذلك، ثم

التفت إلى بريتاني التي كانت تجلس في زاوية الأريكة في غرفة الجلوس.

قال لها بصوت ينضح بالألم: «إنه مستغرق في النوم، أظنه أرهق نفسه بالحديث عن الفيلم.»

فأومأت دون أن تتكلم. وتنهد لوك: «هل لك بفنجان قهوة؟»

فهزت رأسها نفياً وهي تحدق في أوراق وأقلام برايان المتناثرة على المنضدة: «ماذا سنفعل، يا لوك؟»

أدهشه جمود صوتها وخلوّه من المشاعر. لا بد أنها تشعر بنفس ما يشعر به هو من قنوط منذ مخابرة الطبيب تلك فلماذا لا تفصح عن مشاعرها؟ أترى السنوات التي أمضتها وحيدة قسّت من قلبها إلى حد جعلها لا تهتم بموت طفلهما؟

وأجابها: «لا أدري، سنبحث عن شخص آخر يمكن أن يفحص دمه. والدي أو والدتي مثلاً، كذلك لدي عم في سكوتديل...»

وساد صمت مثقل، كان الاثنان يعلمان أن هذا شيء بعيد المنال إذ أن ملاءمة دم الجدين في هذه الأحوال هي نادرة وقد علما ذلك منذ الزيارة الأولى إلى عيادة الأمراض السرطانية.

قالت بريتاني: «يجب أن نخبر والدتك عن النتيجة.»

كان لوك قد سبق له التفكير في ذلك، ولكن كيف له أن يخبرها بأن حفيدها الذي شغفها حباً أثناء الأسابيع القليلة التي عرفته فيها، حفيدها هذا سيموت؟

«فلننتظر إلى أن يعود والدي من السفر، وسيكون ذلك نهار الاثنين.»

أومأت بريتاني ببطء، لم يبد عليها القدرة على رفع رأسها رغم أنه كان علم خلال الأسابيع الماضية أن لديها قوة داخلية غير عادية تساعدها عند اشتداد الحاجة إليها.

قال بصراحة: «لم يكن سهلاً عليك تحمل هذه المعاناة وحدك.»

«لقد قمت بما كان عليّ أن أقوم به.»

«ولكن ما كان لك أن تقومي به وحدك، كان ينبغي أن أكون معك.»

فتنهدت قائلة: «لقد سبق وتكلمنا في هذا الموضوع من قبل. فأنت تعلم لماذا تركت كالغاري.»

«أعرف أنك كنت خائفة ومضطربة وأنني تصرفت كطفل عندما أخبرتني عن والدك. ولكنك لم تمنحيني فرصة قط لأثبت فيها لك ذاتي. لقد كان حكمك عليّ غير عادل.»

نظرت إليه بدهشة، وقد بدا الاهتمام في عينيها: «لقد تركتني. لم أعلم إلى أين ذهبت، فافترضت...»

فقال وهو يرى ملامحها أقرب إلى الارتباك منها إلى الغضب: «بالضبط، بينما طوال الوقت الذي قضيناه معاً، لم تلاحظي قط أنني لا أقرر شيئاً بسرعة.»

سكتت برهة، ثم نظرت في عينيه: «لقد كنت عنيداً على الدوام.»

«لست عنيداً، بل حذراً. إن والدي رجل ذكي جداً. فأخذ المال القليل الذي كان والده قد تركه له، ثم أحاله إلى شركة محترمة في كل أنحاء العالم. وهو الشخص الذي علمني الحذر. لقد اعتاد أن يقول لي، انتبه إلى حرارة الماء دوماً، قبل أن تقفز إليه.»

«ألم يتصرف مرة قط بشكل تلقائي؟»

فهز كتفيه: «أحياناً، طبعاً هناك أوقات يكون عليه فيها أن يعطي حكماً تلقائياً. ولكنه بصفة عامة، هو رجل تخطيط، وقد علمني أن أكون كذلك.»

فحدقت بريتاني في عينيه، وهي تدرك مرة أخرى مبلغ سوء حكمها عليه. ثم قالت برقة: «لقد علمك والدك أن تكون حذراً. أما والدي فقد علمني أنني عديمة القيمة.»

«هل ذلك كان بسبب ما كان يفعل؟»

فهمست تقول: «كلا، بل لأنني لم أكن جميلة أو ذكية. ولأنني كنت طلبت منه أن يعالج نفسه... إن قائمة الحساب لا تنتهي.» وتنهدت بحزن.

«وهل صدقت ما كان يقوله عنك؟»

ابتسمت بكآبة. لا يمكن لإنسان من طبقة لوك أن يفهم ما عانته في حياتها إلا إذا شرحت له الوقائع بشكل واضح صريح، ترددت ثم قررت أن عليها أن تشرح له تلك الوقائع لكي يمكنه أن يفهم جيداً شخصيتها الحالية، وابتدأت تقول له ما كان ينبغي عليها أن تقوله منذ سنوات: «لوك، عندما كنت أنت صبياً، هل حاولت قط أن تحضر إلى البيت قطعة فنية كنت صنعتها في المدرسة؟»

ففكر لوك قليلاً، ثم ابتسم: «نعم، كان هذا يحدث. وهناك رسم رديء جداً ولكن والدتي ما زالت تحتفظ به.» وهز رأسه متابعاً: «إنه رسم فظيع.»

«وماذا قال والدك عنه؟»

«لقد أحبه جداً، وقال إنه أعظم شيء رآه في حياته.»

فلوت رأسها تسأله: «وهل صدقته؟»

«طبعاً.»

«رغم أن الرسم كان فظيعاً؟»

«لم أكن أعرف هذا في ذلك الوقت. فقد كنت أراه رائعاً هذا إلى أن ثقتي بحسن رأي والدي كانت كبيرة.»

فسألته برقة: «وإذا فرضنا أنه، بدلاً من ذلك كان أخبرك أن الرسم قبيح؟»

فسكت لوك ولم يجب. وعادت هي تسأله: «وإذا كان والدك قد قال لك انك كنت غبياً لرسم مثل هذه الصورة، هل كنت ستصدقه كذلك؟»

فكر برهة ثم قال: «نعم.»

فقالت: «نعم، هذا ما سيحصل، فأنت ما كنت تعلم شيئاً بينما كان هو والدك والذي يعلم كل شيء، ثم إذا كان قد قال لك إنك لن تساوي شيئاً في حياتك، أظن أنه كان عليك أن تكافح كثيراً لتصنع من نفسك شيئاً يذكر.»

أخذ يمسح بنطلونه مفكراً، وأدركت هي أنه يتعرض إلى كثير من المفاهيم السيئة، فسمحت له بوقت كاف للتفكير جيداً بما تقول، فهو بحاجة إلى وقت طويل شاق للتمعن في ما قالت. إنها لن تنام باكراً هذه الليلة بل ستسهر في الحديث معه عن هذا الأمر إلى أن يفهم في النهاية كل شيء.

وأخيراً سألها: «وماذا عن والدتك؟ ألم تكن تساندك؟»

كبتت بريتاني ضحكة ساخرة: «كلا، فقد كانت مخلصة تماماً لوالدي. كان واضحاً أنني كنت طفلة غير مرغوب فيها.»

«وكيف عرفت ذلك؟»

«إنها والدتي التي كانت تخبرني بذلك يومياً تقريباً لقد

أفسدت رشاقة قوامها، ووظيفتها وعلاقتها مع والدي، لم نكن منسجمتين قط.» وبان الألم على وجهها.

«هل ماتت والدتك بشكل مفاجىء؟»

«نعم... قبل أن أعرفك بحوالي السنتين.»

«وهل أخبرت والدك عني؟»

فهزت رأسها: «كلا، ما كنت لأفعل هذا، لم أكن أريده أن يضرّك بشيء و...»

وسكتت. كانت هذه المحادثة تعيد الماضي والذي كان ما يزال كريهاً، وتساءلت عن طريقة سهلة تغيّر بها الموضوع.

فقال لها لوك وهو يقترب منها ناظراً إلى وجهها: «بيتي، هل آذاك؟»

فعضت بريتاني شفتها غير قادرة على منع دمعة تدحرجت على خدها، ثم أومأت برأسها.

«لماذا لم تخبريه باسمي؟»

قالت بعنف: «هذا غير ممكن، إذ لا يعرف أحد ما الذي كان سيفعله عند ذاك.»

نظر في عينيها وقد بدا الأسى في وجهه: «ألم تشكيه إلى السلطة على الأقل؟»

«كلا، إنه والدي.»

«ولكنه آذاك.»

بدا لها أنه لا يستطيع تقدير الموقف، فعادت تكرر: «كان والدي، ولم أكن أعرف مكاناً آخر أعيش فيه مهما كان بيته سيئاً. وكنت أتصور أنه يوماً ما، سيعلم أنني كنت أحبه. وأن كل ما كنت أريده هو أن يحبني.» وتدحرجت دمعة أخرى

على وجنتها: «لكن لم يكن يعجبه أي شيء أقوم به، ثم تعرفت إليك، وفكرت في أنني قابلت أخيراً شخصاً غير عادي.»

«آه، يا بيتي...»

فقالت دون أن تستطيع إمساك دموعها: «ولكنك ما لبثت أن تحوّلت ضدي. فأدركت أن الحق كان معه عندما كان يقول إن ليس ثمة شخص محترم يرغب بأن يعيش معي.» وجذبت نفساً مرتجفاً: «وقد برهنت أنت على ذلك باختفائك.»

نظر لوك إليها وهي تحني رأسها تخفيه خلف شعرها، وشعر بالتقزز من سخافة شبابه التي جعلته يبتعد عنها مهما كانت قصر المدة. لقد كان والدها ابتدأ في تدمير هذه المخلوقة الرائعة وذلك باقناعها بأنها فتاة عديمة القيمة، ولكنه، لوك، كانت لديه المقدرة على سحبها من أعماق تلك الوهدة السحيقة، ثم جعلها شابة واثقة من نفسها. ولكن، ماذا فعل بتلك المقدرة؟ لقد هدم بها ذلك المقدار الضئيل من الثقة بالنفس التي كانت لديها وتركها تكافح في سبيل معيشتها ومعيشة ابنهما في ظروف شاذة لا تكاد تُصدق. لقد أذهلت لوك حقارة والدها، ولكن تركه لبريتاني في الوقت الذي كانت هي بأمس الحاجة إليه، كان ذلك قد أثار اشمئزازه.

قال لها: «إنك تعلمين بأنني لم أتركك بسبب سجلّه الاجرامي، أليس كذلك؟» وعندما أومأت ايجاباً ودمعها ما زال يسيل، تابع يقول برقة: «انظري إليّ، أرجوك هل تعلمين أنني، بغيابي عنك ذلك الحين، لم أكن أقصد رفضك؟ هذه هي طبيعتي. وأنا ما زلت هكذا. فعديني بأنه إذا حصل

في المستقبل أيّ شيء كهذا مرة أخرى، فستمنحينني فرصة أخلو بها إلى نفسي لدراسة الأمور بطريقتي الخاصة.»

«سأفعل ذلك، أعدك.»

نظر إليها طويلاً، ثم قال: «هذا حسن، والآن بالنسبة إلى برايان، أظن أفضل شيء نقوم به هو أن ننتقل نحن الثلاثة معاً.»

فجمدت في مكانها: «ماذا؟»

«تعلمين ما أقصد. نشتري بيتاً نعيش فيه كأيّ عائلة أخرى.»

فابتعدت عنه: «ولماذا؟»

ضاقت عينا لوك، فقد كان الأمر واضحاً تماماً، وقال: «ذلك لكي نكون معاً، بالطبع.»

«ولكن لا يمكننا ذلك.»

فسألها محاولاً أن يبدد الضيق من صوته: «ولِمَ لا؟»

«لأن لديّ وظيفة في فانكوفر. وحياة خاصة وامرأة تجلس بجانب ابني.»

فقال: «هذا لا يهمني. لقد سبق وقلت لك إنني لا أريد أن أفقد برايان، وحيث أنني لا أستطيع نقل شركة وأعمال ماك كول إلى فانكوفر، عليك أنت أن تأتي إلى كالغاري.»

فرأى السخط في عينيها، تباً لذلك. لم يكن يقصد أن يكون طماعاً، ولكنه بحاجة إلى ابراز وجهة نظره والتي هي أنه لا ينوي أن يفقد ابنه للمرة الثانية، خصوصاً وأن حياته قصيرة.

قالت بريتاني بصوت ثابت: «سأفكر في الأمر.»

لم يناقشها، فحيث أنه كان يعلم أنها تضع مصلحة

برايان قبل كل شيء، فهو لم يشكّ في أنها ستقرر الرأي الصواب وتسمح بأن يعيشوا جميعاً معاً إلى أن...

وقال بلهجة عادية: «حيث انك تعلمين موضع اهتمامنا فقد فكرت في أن نجد بيتاً قريباً من مكان يتمكن فيه برايان من أن يكون له حصاناً خاصاً به، فقد تقدم جيداً في درس الركوب، الأسبوع الماضي، كما تعلمين.»

ترددت قليلاً ثم قالت: «لا شك أنه سيحب ذلك.»

«هل تحبين العيش في الريف؟»

بدت عليها الدهشة لهذا السؤال، وقالت: «أنا؟ هذا لا يهم. المهم هو ما يناسب برايان.»

فشبك ذراعيه على صدره وحدّق إليها بإمعان: «ألا تفكرين أبداً في ما تريدينه أنت؟»

خفضت نظراتها عدة لحظات، ثم عادت تنظر إليه وتقول ببساطة: «كلا.»

اغتنم لوك الفرصة ليعرف المزيد عنها، وقال: «فكري إذن في شيء تريدينه. أي شيء، بيت، سيارة، رحلة، أي شيء بجانب صحة برايان.»

بدا عليها أنها لا تستطيع أن تقرر. فسألها: «سيارة جديدة؟»

«إن سيارتي جيدة.»

«منزل؟»

«ربما.»

«رحلة؟»

«دوماً برايان كان يريد أن يذهب إلى مدينة ملاهي ديزني.»

«ولكن هل تريدين أنت أن تذهبي إلى هناك؟»

بدا عليها وكأنها تحلم، وسره أن يرى ابتسامة على شفتيها وهي تقول: «كان لديّ ذات يوم صورة لتاهيتي.» وتنهدت سروراً: «وكنت قطعتها من إحدى المجلات وألصقتها في غرفتي، وكلما... كلما أخذ والدي في التمادي في خشونته، كنت أقفل عليّ باب غرفتي وأحدق فقط في تلك الصورة.»

ضاقت عيناها وأدرك لوك أنها كانت تتصور أشياء في ذهنها.

وتابعت تقول: «وقد ساعدتني تلك الصورة في تحمل الكثير من المعاناة.»

«إذن، فإلى هناك سنذهب.»

نظرت إليه بحدة: «إلى تاهيتي؟»

«نعم، وفي طريقنا نزور مدينة ديزني.»

فقالت: «إنك مجنون، لا يمكننا الذهاب إلى تاهيتي. وماذا بشأن برايان؟»

مال لوك إلى الأمام وقال ما لم يستطع قوله قبل الآن: «ماذا بشأن برايان؟ فعدا عن بحثنا الدائم عمن يعطيه من مخ عظامه، ليس ثمة ما نقوم به لأجله سوى أن نجعل ما بقي له من سنوات في هذه الحياة، حلماً طويلاً رائعاً.» ورأى مسحة السعادة التي كست وجه بريتاني ما جعله يكره الاتيان بموضوع آخر صعب، وتابع يقول: «لا أحد يدري ما سيحدث وقد تأتينا السنوات القادمة بالسعادة.» وتابع برقة وحزم: «عدا عن أنني أريدك وبرايان أن تكونا هنا في كالفاري فأنا أريد أن تسنح لي فرصة لأجعل ما بقي له من حياة أجمل سنوات حياته.»

«ولكن ماذا بالنسبة إلى...»

«لا أريد كلمة ولكن هذه.» أمسك بكتفيها ومال إلى الأمام ينظر في عينيها: «بيتي... أنت مديونة لي بهذا.»

فتحت فمها لتتكلم، ثم عادت فأقفلته، ثم عادت ففتحته لتقول برغمها: «إنني خائفة.»

«وما الذي يخيفك؟» يا ليته يستطيع حملها على الكلام لكي يريحها من مخاوفها ثم يبحث عن منزل يشتريه في الريف في نهاية الأسبوع.

أجابت هي تقول: «أخاف من نفسي، منك، من...»

وحدثت نفسها... تابعي، قوليها اعترفي بأنك خائفة من أن تعودي إلى حبه. أن تحبيه إلى حد يجعلك تموتين إذا فقدته مرة أخرى.

لكنها قالت كاذبة: «خائفة من أن لا أحصل على وظيفة هنا.»

«وماذا بالنسبة إلى الفندق الذي تقيمين فيه؟ أليس هو فرع من ذلك الذي في فانكوفر؟ يمكنك أن تطلبي نقلك.»

«أظن ذلك، ولكن هناك السيدة كاي جليسة برايان عليّ أن أضعها أيضاً في الاعتبار.»

«يمكنها القدوم إلى هنا بنفس السهولة التي تذهب بها إلى فانكوفر. أليس كذلك؟ ألم تقولي إن كل أسرتها في المناطق الساحلية؟»

ابتدأت تشعر بالضيق. فالرجل كان كمبيوتر يسير على قدمين، فهو يتذكر كل التفاصيل الدقيقة التي كانت قالتها في الأسابيع الماضية.

وأجابت: «نعم.»

«ما هي الأسباب الأخرى إذن التي تدفعك إلى العودة إلى فانكوفر؟»

وجلس ينتظر، مستعداً دون ريب، لمجادلاتها العقيمة بمائة جواب حاسم، وكان لديها سبب واحد حقيقي لذلك، وهو خوفها البالغ من أن تفقد السيطرة على حياتها. ففي مدة قصيرة فقط، شعرت بنفسها تنزلق إلى حياة يومية روتينية مريحة يأتي فيها لوك كل ليلة لتناول العشاء والخروج مع برايان حيث يمثلون جميعاً أسرة طبيعية.

لكنهم ليسوا كذلك، وهذه الحقيقة تؤلمها، فلولا برايان لما كانت هي ولوك معاً، محدثة نفسها على الدوام بأنهما يعيشان معاً لوقت محدود فقط. وأنهما بخروجهما للبحث عن منزل، قد يعجبهم واحد فينتقلون إليه معاً، حسناً... ما فائدة كل ذلك؟ ما الذي سيحدث إذا برايان... حسناً، إذا برايان...

أغمضت عينيها بشدة، ستعود إلى وحدتها مرة أخرى. إنها ستفقد برايان ولوك كذلك، وفي ذلك ما يكفي لكي يجعلها عاجزة ومنهارة صدرت عنها شهقة مشحونة بالألم بينما أخذت الدموع تنهمر من عينيها.

خفضت رأسها كيلا يرى لوك دموعها: «لا يمكنني احتمال ذلك... فقط... لا أستطيع... احتماله.»

«احتمال ماذا؟»

فهمست: «أن أفقدكما، أنتما الاثنين، إنه كل ما لديّ منك. كل تلك السنوات... لشدّ ما اشتقت إليك.» وانهمرت دموعها: «ولكن كان لديّ برايان على الدوام. كان جزءاً صغيراً منك هو ملكي أنا.» وخطرت في بالها فكرة مفزعة فرفعت رأسها تحدق في لوك.

وكان هو يراقبها بإمعان: «ماذا؟»

فهمست وهي لا تكاد ترى وجهه من خلال دموعها: «هذا عقاب لي، إنه عقابي لإخفائه عنك.»

«بيتي، هذا...»

فقاطعته قائلة: «كلا، بل هو الحقيقة. لقد كنت أنانية كل تلك السنوات، وها أنذا الآن سأحرم منه نهائياً بسبب طمعي.»

فقال بحزم: «كلا، يا بريتاني إنك مخطئة.» وأمسك بذراعيها يهزهما لكي تنظر إليه. رأى بريتاني تخرج في تفكيرها عن المنطق هذه المرة، وعليه أن يجعلها تتعقل قبل أن تأخذ في تصديق هذه الأشياء عن نفسها. وأخذ يكرر: «أنت مخطئة، إذا كان هناك من عليه أن يتلقى عقوبة، فهو أنا.»

«أنت؟ وكيف؟»

«لأنني لم أتقبله على الفور. وذلك بالتساؤل ولو للحظة، عما إذا كان ابني حقاً.»

فقالت: «هذا غباء.»

«وكذلك تفكيرك بأنه أصبح مريضاً بسببك، إن هذه الأمور تحدث دوماً، دون أن تكون ذنب أحد، عديني بأن تتوقفي عن مثل هذه الأفكار التي تحمّلك شعوراً بالذنب لا يمكن لأحد أن يتحمله.»

رآها تفكر في كلامه دون إعطاء رأي حاسم. ربما شعورها بالذنب كان هو أسلوبها في مواجهة حقيقة أنها لم تستطع انقاذ حياة برايان، فهو يعرف نوع مشاعرها ولكنه لم يكن مستعداً لابتداء مناقشة أفكاره الآن في هذا

الموضوع. فهما الاثنان بحاجة إلى استعمال ذكائهما لكي يحققا لبرايان البهجة في كل لحظة من حياته.

«ما رأيك في أن أصنع لك قهوة؟»

من خلفها، جاء صوت برايان: «ماما.»

فهتفت على الفور: «برايان؟ ماذا؟ هل أنت بخير؟» كان اهتمامها واضحاً.

واستدار لوك ولكنه رأى برايان جاراً بطانيته خلفه وشعره أشعث وعيناه شبه مغمضتين ما كان واضحاً معه بأن لا شيء هناك يستدعي الاهتمام.

فقال وهو يجلس برايان على ركبتيه: «ماذا هناك، يا صغيري؟»

سألته بريتاني بسرعة: «هل تشعر بشيء؟»

فقال لوك يطمئنها: «إنه بخير، أليس هذا صحيحاً يا شريكي؟»

فالتفت برايان إلى لوك وابتسم. وانحبست أنفاس لوك للحب البريء المتدفق من برايان. وجاهد لكي لا يبقيه بين ذراعيه ولا يطلقه أبداً.

وبدلاً من ذلك سأله: «ماذا تريد الآن؟»

«أريد أن آخذ دروساً في التمثيل.»

فرددت بريتاني كلامه: «دروساً في التمثيل؟» وأطلقت ضحكة قصيرة: «هل استيقظت من النوم لأنك تريد أن تأخذ دروساً في التمثيل؟»

فسألها بابتسامة رجاء: «هل يمكنني ذلك، يا ماما؟ كنت أحلم بالجياد والركوب وكنت ماهراً تماماً. ورأيت أنني إذا ابتدأت بالدروس الآن، فيمكنني أن أمثل في الأفلام قريباً.»

فضمت بريتاني شفتيها وأغمضت عينيها عدة لحظات. كان لوك يعلم ما شعرت به من ارتياح إزاء طلب برايان البسيط هذا، وابتسم بدوره قائلاً لبرايان: «أظن يمكننا ترتيب ذلك، وطبعاً أنت تعلم أن الممثلين بحاجة إلى كثير من النوم، أليس كذلك؟»

«لماذا؟»

«حسناً، لأنهم يستيقظون باكراً، وينامون متأخرين إن لديهم الكثير ليتعلموه، وجياداً ليركبوها، فكر في ذلك.»

قطب برايان جبينه وهو يومىء برأسه، ثم التفت إلى بريتاني: «ولكنني أريد أن تحضنيني أولاً.»

فتركه لوك ينزل عن ركبتيه، ناظراً إليه وهو يلقي بنفسه بين ذراعي أمه المفتوحتين. واستلقت هذه على الوسائد خلفها وهي تضمه بحنان أخجل لوك. لم يكن ثمة إنكار لقوة الرباط الذي يشدّ هذين المخلوقين إلى بعضهما البعض، لقد كانت حياتهما واحدة.

كانت بريتاني لا تعرف سوى الحب المطلق دون شروط. فليس هناك شيء لا تعطيه، حتى حياتها فمثل هذا العمق في المشاعر، بما في ذلك ما كانت عانته من آلام في حداثتها، كل ذلك جعله يشعر بالتفاهة والسطحية. هل حدث قط أنه احب الآخرين على نفسه كما تفعل هي؟ لقد واجهت غضب والدها بشجاعة متحملة الألم والقساوة في سبيل حمايته، هو لوك، من ثورة والدها العنيفة، فماذا قدم هو إليها مقابل ذلك؟ لقد واجهت العالم وانشأت ابنهما كما طافت البلاد بحثاً عن مانح مخ العظم لإنقاذ حياة ابنهما، وحدها كما واجهت غضب لوك لما سبق وفعلت معه، عندما عادت إليه تطلب منه العون.

وما زالت تعطي، فتشاركه مشاعره وآلامه، ثم تحاول أن توضح له السبب في تصرفاتها السابقة. وفجأة، فهم طريقة تفكيرها كما لم يفهم ذلك من قبل ورأى أن حبها له هو ما جعلها تهجره وتهجر المدينة كالغاري.

وسقطت هذه الحقيقة ثقيلة على كتفي لوك. لقد كان هو الذي عليه أن يقوم بالمصارعة وسؤالها الصفح وأن تمنحه فرصة يقوّم فيها الأمور.

تنهد برايان بعمق فتحولت نظرات لوك إلى وجهه الطفولي، أدرك مبلغ الراحة التي كان ابنه يشعر بها، وتاقت نفسه إلى مثل ذلك. ولكنه قد آذى بريتاني كثيراً ولم يعد واثقاً من أنه سيحصل بعد ذلك على ثقتها. تنهد هو أيضاً، متمنياً لو كان بإمكانه إعادة الماضي، راجياً بصمت، أنه يوماً ما، قد يحصل على جزء مهما كان ضئيلاً، من ذلك الماضي.

لكن هذه الأفكار لم يكن وقتها مناسباً الآن. إن أمامهما الكثير من العمل وهكذا تناسى لوك الفراغ الذي يشعر به في قلبه وأخذ ينظر مزهواً، إلى بريتاني وبرايان وهما مستغرقان في النوم... وهكذا أمضى دقائق يتأمل هذا المنظر الرائع لأم وابنها.

استند لوك إلى الخلف غير قادر على تحويل نظراته عن هذا المشهد الرقيق أمامه. لقد كانت الأم والابن كشخص واحد بحيث أصبح من الصعب تصور أحدهما من دون الآخر، ولكن إذا ما تحقق الكابوس وتفرقا... ماذا سيحدث؟

ماذا سيحدث عندما لا يعود برايان يربط بين لوك وبريتاني؟ هل سيذهب كل منهما في طريق مختلف بكل بساطة، ويتحطم رباطهما؟ وهل هذا ما كان يعنيه هذا

الوقت الذي يمضيانه معاً؟ وهل كانت رسالة برايان هو إعادتهما، هما الاثنين إلى بعضهما البعض؟ وهل كان دوره الوحيد في تخبط الأحداث الجنوني هذا، هو للتأكد من أن هذين الشخصين اللذين تبادلا الحب ذات يوم سيتذكران مبلغ تفانيهما ذاك فيستعيدانه؟ هل كان برايان ضحية؟

شعر لوك بغصة في حلقه. وتملكه الاضطراب وإذ حاول أن يفهم وضع موقف غير عقلاني، تملكه الصداع.

تمتم يأخذ على نفسه عهداً بأن يقوّم الأمور بالنسبة إليهما وأن يصلح من أخطائه ويقوم جاهداً بمنحهما الحياة التي يستحقانها...

ثم ما لبث أن استغرق في النوم حيث هو.

الفصل التاسع

نظرت بريتاني إلى لوك من فوق حافة فنجانها وقد ارتفع حاجباها بحدة، ثم سألته غير مصدقة: «أتظن أن علينا أن ننجب طفلاً آخر؟» أخفضت صوتها بعد أن أدركت أنها تحدثت بصوت عال، وأدارت نظراتها في أنحاء المقهى الصغير الذي يجلسان إلى احدى موائده.

فأجاب لوك: «نعم. وهذا منطقي.»

«ما أسخف هذا. من أين جاءتك هذه الفكرة؟»

«لقد قرأت عنها في مجلة طبية الاسبوع الماضي. ولكنني لم أهتم بالأمر كثيراً إلى أن تحدثت إلى الدكتور كارسون...»

«متى؟»

«هذا الصباح.»

فضحكت بريتاني غير مصدقة. فقد كانا علما بعدم ملاءمة دم لوك أمس الأول فقط. وها هو ذا الآن يحدثه هذا الصباح، وقالت له: «أما كان بإمكانك أن ترجىء الحديث في هذا الموضوع اثناء مقابلتنا، أنا وأنت، له يوم الاثنين؟»

فأجاب: «كلا. فأنا أريد الحقيقة الآن. وهم يقولون إن أي طفل ننجبه لديه فرصة من أربع بأن يكون دمه ملائماً لبرايان. أردت أن أسمع ذلك دون سماع أعذارك التي تخالف ذلك.»

قالت بحرارة: «إن لدي مليوناً من هذه الأعذار.»

«اذكري واحداً منها.»

فقطبت جبينها بحيرة: «هذا غير منطقي.»

«هل انقاذ حياة برايان شيء غير منطقي؟»

فقطبت جبينها: «معك حق. فلندع هذا النقاش جانباً. وماذا يحدث لو أن هذا الطفل دمه كان غير ملائم؟ وماذا سيكون شعور الطفل عندما يكبر ويعلم أن السبب الوحيد لانجابه كان... آه.» تأوهت قانطة. كان هذا كثيراً عليها. ونظرت إلى لوك: «ماذا سيكون شعوره؟»

فأجاب: «إن طفلنا ذاك لن يعلم هذا أبداً. هذا إلى أن أي طفل سننجبه سيكون مرغوباً فيه. مني أنا على الأقل. وجواباً على سؤالك عما سنفعل إذا كان دم الطفل غير ملائم، الجواب هو أننا سننجب طفلاً آخر غيره.»

فتحت فمها ذاهلة. إنه لم يكن مخبولاً فقط، ولكنه كان جاداً أيضاً.

قالت تناقشه: «إن هذه الأمور تأخذ وقتاً.»

فقال وهو يعود إلى تناول غدائه: «إن وجهك يحمر. ماذا حدث؟ ألم تعجبك الفكرة؟»

ازدردت ريقها وهي تفكر في أنه لن يعلم قط: «هذا ليس سؤالاً جاداً كما أرى. دعنا نعد إلى أولئك الأطفال الذين سننجبهم. ماذا يحدث إذا لم يكن دم أي منهم ملائماً؟»

فقال: «إنني واثق تماماً من أن دم أحدهم سيكون ملائماً. ولكن، حتى إذا حدث الأسوأ، فسنبقى نحبهم وننشئهم على أحسن ما يمكننا.»

دار رأس بريتاني. كان لوك يقترح أن يبدأ بانشاء مصنع للأطفال، وطبعاً بنية حسنة... ولكن، مع ذلك...

قالت: «إنك تتحدث عن التزام يستغرق الحياة كلها.»

سكتت وقلبها يخفق بسرعة. إنها فكرة حسنة في الحقيقة ما دامت تتضمن عودة علاقتهما كزوجين.

وقالت: «حسناً، دعني استوضح منك تماماً. تريد أن يكون لنا المزيد من الأطفال...»

«أريد أن أراك حاملاً خلال شهر.»

عاد قلبها إلى الخفقان لدرجة شعرت معها بالدوار. ثم قالت وهي تضحك لاهثة: «اسمع يا لوك. المرأة لا تحمل بمجرد ان تنوي ذلك.»

«سنحاول أن نفعل ذلك.»

«ولكن، ألا تظن أن عودة علاقتنا الزوجية ستكون صعبة عليك... و...» وانتظرت جوابه بقلق.

أجاب بهدوء: «هذا غير صحيح. فأنت رائعة الجمال والجانبية. مشاعري لم تتغير نحوك، وأظنك كذلك أيضاً.»

فأخذت تحدق في الكاكاو وفي فنجانها شاعرة بوجهها يتوهج، وحاولت استعادة هدوء أعصابها.

إنها ستفكر في الأمر. ينبغي أن لا تؤخذ بأقواله هذه، فهو لن يفعل ذلك إلا لأجل برايان وليس لأنه يحمل مشاعر خاصة نحوها وأنه مثلها يريد أن يضحي بحياته لأجل ابنه. أما مشاعره نحوها والتي تحدث عنها فهي مجرد جاذبية وليس الحب.

أخيراً حولت عينيها عنه وأخذت تحدق في غطاء المائدة وهي تتمتم: «لا أدري ماذا أقول.»

«قولي نعم.»

لم تستطع رغم رغبتها في ذلك. لم تستطع أن تقبل بشكل أعمى بمشروع مقدر له أن يحطم قلبها. لأن هذا ما سيحدث

كل صباح تستيقظ فيه من النوم لترى لوك بجانبها مرغماً لأجل الانجاب فقط وليس بدافع الحب. بينما حبها له سيزداد يوماً بعد يوم كلما تزايد احساسها بالاطفال ينمون في أحشائها، ولكن ماذا بالنسبة إلى حبه هو لها؟ فمع كل ما ستحصل عليه هي في حياتها معه، هل سيكون هذا ما لن تصل إليه أبداً؟

إنها لا تستطيع أن تثق به. وتقديمه لها المجوهرات والمنزل الريفي لن يكون كافياً لتأكيد إخلاصه. فهو أحمق إذ يفكر أن بإمكانه التسلل إلى حياتها بهذه الطريقة.

لقد كان استيقظ من نومه على الأريكة، في ذلك الصباح، مصمماً على اصلاح الأمور بينه وبين بريتاني. ناسياً أنه كان قد تعهد بارجاء ذلك إلى ما بعد استقرار أمر برايان. وعد نفسه بذلك بسرعة فقد كان الوقت أثمن من أن يمضيه في قياس حرارة الماء... في التساؤل والانتظار. وهكذا تقدم بهذا الحل الذي اعتبره مناسباً لمشكلتهم والذي لن ينقذ فقط حياة ابنهما، ولكنه أيضاً سيشكل بداية جديدة لحياتهم أيضاً.

نظر اليها الآن وهي تعبث بالملعقة وأدرك أن عمق شكوكها هي أعمق مما كان يظن. إذ رغم أنها تقوم بأي شيء في سبيل إنقاذ حياة برايان، إلا أنها ترفض حتى التفكير في ما عرضه عليها.

كانوا قد أمضوا معظم هذا الصباح في منزل لوك حيث أخذ لوك بعض ملابسه ليضعها في شقة بريتاني موفراً عليه، بذلك، تكرار الرواح والمجيء بين بيته وبيتها. وعندما رفض برايان الخروج، أخبره لوك بزهو أنه منذ الآن فصاعداً يمكنه أن يأتي لزيارته متى شاء.

وبعد ذلك أنزلا برايان في منزل سوزي ثم تابعا طريقهما إلى مقهى لوك المفضل لتناول القهوة.

أخذ لوك يحدق في فنجانه. هذا الموعد لم ينجح رغم حسن نيته ما جعله يشعر بالضيق. لقد كان يظن، لحماقته، أنهما سيعودان الآن إلى منزل والديه بخبر هذا الحل الوشيك، بينما في الحقيقة، لم توافق بريتاني بعد حتى على الانتقال إلى كالغاري.

سألها: «هل انتهيت؟»

«كلا.»

نظر إليها فرآها حازمة الملامح.

أضافت: «سأفكر في الأمر.»

«أتعنين...؟»

«نعم. سأحاول أن أفصل مشاعري الشخصية من جوانب اقتراحك العملية، ومن ثم أفكر فيه.»

«شكراً. وإن كنت لا أظنك ستصلين إلى قرار.»

نفد صبرها وقالت: «لوك، إنك تتصرف كالأطفال.»

«إن الرفض يفعل هذا في الرجل.»

فقالت باسمة: «إنني لا أرفضك. ولكنك فاجأتني، وهذا كل ما في الأمر. لم أتصور قط مثل هذا الرأي منك. إنك تعلم أنني لا أتوانى عن شيء في سبيل انقاذ حياة برايان. أعطني فقط وقتاً أفكر في فكرتك هذه. لقد كنت أخبرتني أنك تأخذ دوماً وقتاً تقيس فيه حرارة الماء قبل القفز إليه، فامنحني نفس الحق.»

نظر لوك في عينيها وعلم أنها ستوافق إذا هي فكرت في الأمر. عندما استيقظ هذا الصباح كان أول ما تبادر إلى

ذهنه هو أن الأمور سوف تُحل، وأنه بدلاً من أنه تهزمه مشكلته، فالحل سيأتي من ذاته... وكان هذا صحيحاً.

«من الممكن أن ينجح هذا الحل، يا بريتاني. وهو الذي كنا نبحث عنه.»

فأومأت: «ربما، ولكن التعقيدات... إنه ليس حلاً قريباً، يا لوك. إننا نتحدث عن الحياة بأسرها هنا. فأنا غير واثقة من أن بإمكاني الوصول إلى ذلك الحد.»

لم يكن يريد كلمة نعم منها، ولكن تفكيرها في اقتراحه هذا هو دليل على شيء من الثقة به. إنها البداية وفي الحقيقة، لم يكن يحب أن تعاني بريتاني متاعب الحمل المتكرر، ولكن لم يكن ثمة خيار في الأمر. فحياة برايان رهن الخطر.

وأجاب: «إنني متفهم لذلك.» ثم ترك هذا الموضوع. فقد طلبت بريتاني وقتاً للتفكير وهو سيمنحها ذلك.

عاد يقول: «هيا بنا نحضر برايان، ونمر على شقتك.»

وعندما غادرا المقهى، قررا القيام بجولة في أنحاء المدينة. وقد تعمد لوك أن يبقى الحديث مرحاً موزعاً بين مواضيع شتى. وعندما أخذت تتحدث عن حلمها بالسفر يوماً ما، أوقفت السيارة بجانب الشارع الموصل إلى المطار حتى يمكنهما مشاهدة الطائرات المقبلة إليه. ومع نهاية الوقت الذي أمضياه هناك، كان قد جعلها توافق على القيام برحلة إلى مدينة ديزني. أما رحلة تاهيتي فقد وجد منها ممانعة جعله يؤخر الموضوع إلى وقت آخر.

بعد أكثر من ساعتين، وصلا إلى شقتها القائمة على ضفة النهر حيث أمضيا فترة يتفرجان على البط السابح قرب الضفة الموحلة قبل أن يتوجها إلى الباب. وبينما كانا لوك

يدخل المفتاح في القفل، سمعت بريتاني رنين الهاتف في الداخل، فأخذت تستعجله قبل أن تفوتهما المكالمة.

أسرعت إلى الهاتف حيث رفعت السماعة: «آلو...»

«بريتاني؟ أهذا أنت؟»

«نعم، أنا هي يا دكتور كارسون.»

فقال: «حسناً، لقد وجدت أخيراً خبراً طيباً. كان بإمكاني أن أنتظر حتى الاثنين. ولكنني فكرت في أنك تستحقين الاستمتاع بعطلة أسبوعية حسنة.»

استقامت بريتاني في جلستها وتشبثت بالسماعة ثم سألت بلهفة: «ما هو الخبر؟»

«يبدو أننا وجدنا من هو دمه ملائم لأجل برايان.»

تدفقت الدموع من عيني بريتاني. فأغضمت عينيها ثم غاصت بين الوسائد وقد تدفقت من عينيها دموع الفرح.

سألها لوك: «بريتاني، ما الخبر؟»

فقالت بريتاني في الهاتف: «نعم. أنا ما زلت هنا.» ونظرت إلى لوك وهزت رأسها غير قادرة على كبح الدموع، ثم ناولته الهاتف.

سيعيش ابنها. وهي كوفئت على كفاحها المرير للوصول إلى هذه اللحظة، وذلك لأجل برايان.

نظرت إلى لوك وهي تمسح دموعها بأصابعها، بينما كان هو يضع السماعة من يده وقد بان عليه الذهول، وتشبثت بيده قائلة: «ماذا قال؟»

جلس على المنضدة وهو يحدق إليها.

«أخبرني يا لوك.»

فقال بصوت ذاهل: «إنها والدتي، كيف...»

«ماذا عن والدتك؟»

اسند رأسه إلى الخلف وأخذ يقهقه من أعماقه، ثم تنهد هازاً رأسه: «إنها هي الملائمة.»

«كيف علمت؟ كيف علموا؟ ما...»

«أتذكرين اليوم الذي أخذت فيه برايان إلى بيتنا لزيارتها؟»

«طبعاً. لقد كانت قررت بأن تفحص دمها لأجل برايان، ولكنني أخبرتها بأن لا تزعج نفسها، ذلك أنني ظننت أن كل شيء قد أصبح مستقراً الآن، هذا إلى أن معوقات إمكانية ملائمة دمها...»

أمسك بكتفيها يهزهما: «ولكنها لم تستمع إلي، يا بريتاني، حيث أنها لم يكن من عادتها الاستماع إلى أحد.» ضحك وهو يضيف قائلاً: «وفي اليوم التالي ذهبت إلى العيادة حيث وجدت الدكتور كارسون وطلبت منه أن يفحص دمها. ولكنها أيضاً طلبت منه أن لا يخبرنا كي لا يتملكنا الاستياء.»

أخذت بريتاني تضحك وهي تشعر بقلبها يطير في الأعالي. لقد أصبح شفاء برايان أقرب إليهما من أي وقت مضى.

العائق الوحيد الذي يواجهانه الآن هو أن يتقبل جسمه نقل مخ العظم، وبكل قوة مشاعر والدته نحو طفلها المريض، ستجعل ذلك يحدث. قطع عليها أفكارها صوت لوك: «بريتاني.»

فرفعت بصرها إليه.

قال ببطء: «كل ما كنت قلته لك، لم أكن أعني به أن أرغمك على انجاب مزيد من الأطفال، إنني آسف إذا كان كلامي حمل هذا المعنى، ولكنني كنت أشعر بأننا أوشكنا على

ايجاد الحل، دون أن يخطر ببالي أن الحل ذاك سيكون بالعثور على واهب.»

بدأ الشعور بخيبة الأمل يتملكها، بينما كان هو يتابع: «انسي إذن ما كنت قلته لك.» وابتسم بأسى «لم يعد الأمر مهماً الآن.»

فأومأت برأسها وهي تستقيم في جلستها لا تريد أن تظهر ما تشعر به من ارتباك: «إنني، في الواقع، لم أتقبل الفكرة على كل حال.» وكانت تكذب طبعاً: «أعني أنك كنت تتعلق بالوهم. كنت أعلم ذلك.»

وتمزق قلبها ألماً وهي ترى لوك يهز رأسه موافقاً: «نعم، أظن ذلك.» ابتسم وهو يتخلل شعره بأصابعه: «كان وضعاً ميئوساً منه...»

ساد بينهما صمت شاذ. وعندما لم تعد تستطيع احتماله، مالت نحو لوك تقول: «أشكرك للتقرب إلي بتلك الفكرة. فتفكيرك الدائم في خير برايان يعني الكثير.»

«إنني أقوم بأي شيء لأجله.»

«أعرف هذا. وهذا أحد الأشياء التي أحبها فيك وهو حبك للغير.»

نظر في عينيها، ولكن الألم بدا في ملامحه تقريباً. بدا وكأنه يهم بقول شيء، ولكن بعد لحظة، خفض نظراته إلى الأرض. وخطر ببالها فجأة أنها قد تكون أحرجته بكلامها عن الحب. ومن ثم عاهدت نفسها على أن تنتبه إلى كلماتها من الآن فصاعداً.

وطال الصمت. تمنى لوك لو يأخذها بين ذراعيه، وتملكه القنوط. فرغم غمرة الفرح التي شعر بها لعثوره على واهب

ملائم لبرايان، إلا أن نتيجة الفحص قد غيرت كل شيء. لم يعد لدى بريتاني حاجة إلى التفكير في اعادة علاقتهما الزوجية أو انجاب الاطفال الآن، لم يكن يدرك مقدار اللهفة التي كانت تتملكه لمشاركة بريتاني وبرايان حياته وبيته، وربما عدة أطفال آخرين كذلك، لكنه يدرك ذلك الآن.

سألها وقد شعر فجأة أنه أصبح غير مرغوب فيه: «هل ما زال لا بأس في تركي بعض ملابسي هنا؟»

فقالت بسرعة: «طبعاً، ولماذا لا؟»

فهز كتفيه: «إنني أسألك فقط.»

فقالت بحرارة: «إنك تعلم بأنك موضع ترحيب هنا في أي وقت. دوماً وفي أي وقت.»

ابتسمت له وأجابها بابتسامة عريضة. قد لا تصبح علاقتهما كما يحبها أن تكون. ولكن بريتاني ستكون دوماً جزءاً من حياته. فثمة ابن يربط بينهما برباط أبدي، وإذا كان هذا كل ما سيظفر به في حياته، فسيتقبله شاكراً إذن.

«هيا بنا نخبر والدتي بهذه البشارة.»

• • •

ألقى النور الخافت بتألق خفيف على ملامح برايان الشاحبة النائمة.

جذب لوك بطانية برايان المفضلة لديه، جذبها إلى ما تحت ذقنه، محاولاً أن لا يقلق لشحوب وجهه هذا. كل شيء قد جرى كما يجب... بهذا طمأنه الدكتور كارسون أكثر من مرة، ولم يبق ثمة ما يعمل سوى انتظار تقبل جسم الصبي لمخ العظام الذي نقل إليه منذ أيام.

وحيث أن ظهور النتيجة ستأخذ بعض الوقت اتفق افراد العائلة على التفاؤل وابعاد مشاعر الخوف الطبيعية من أن الأمور قد لا تأتي على ما يحبونه.

لقد مضت الآن ثلاثة أسابيع منذ علموا بملائمة دم الوالدة. وأثناء ذلك تضاعف احترام لوك لبريتاني وبرايان أضعافاً مضاعفة. فقد كانت بريتاني كالصخرة أثناء العلاج الكيميائي لقتل مخ عظام برايان المريضة وإفساح المجال لنقل مخ عظام جدته مكانها، بينما برايان...

تنهد لوك بعمق حدق إلى وجه ابنه بحب واحترام أوشكت معهما دموعه على الانحدار. لم يتذمر الصبي مرة واحدة مهما فعلوا به.

انتهى الآن كل هذا وأصبح بإمكانهم أن يرتاحوا حالياً.

انتبه لوك إلى صوت اغلاق باب غرفة المستشفى هذه، وإذ استدار، رأى والدته.

قالت له وهي تنظر إلى السرير: «مرحباً. هل هو نائم منذ مدة طويلة؟»

فأجاب: «نعم. لقد نام مبكراً هذه الليلة.»

جلست على كرسي بجانب السرير وأخذت تنظر إلى حفيدها بزهو واضح: «النوم حسن. فالجسم يشفي نفسه بنفسه أثناء النوم.»

ابتسم لوك لطريقتها السهلة في تفسير امور الحياة، وسألها: «أما كان الأجدى أن تنامي أنت أيضاً؟»

فأشارت بيدها قائلة: «لا تكن سخيفاً. كان نقل مخ العظم بالنسبة إليّ كقطعة حلوى. لم يكن الأمر أسوأ من الاصابة بانفلونزا بسيطة.»

لم يكن هذا رأي لوك. ولكنه كان يعلم أن من العبث مناقشة والدته. ذلك أنها عنيدة أحياناً، وكان يشعر بالسرور لأنه لم يرث ذلك عنها.

وسألها: «أين والدي؟»

«في الكافيتيريا مع بريتاني. آخر شيء سمعته عنه أنه كان يتبادل مع الممرضات النكات عن الأطباء، وذلك أثناء فرصة تناول القهوة.»

ضحكت وهي تتابع: «بدا شيء من الارتياح على بريتاني جميل أن نراها تضحك مرة أخرى.»

«نعم. إنها تستحق شيئاً من المرح. لقد عانت كثيراً. ولا أدري كيف استطاعت احتمال كل ذلك.»

أجابت الأم برقة وهي تمسك بيده: «إنها فتاة قوية. رغم أنني ما زلت أشعر بها على شيء من الخجل. ما كان لك أن تكون قاسياً عليها.»

فسألها بدهشة: «أنا؟ وماذا فعلت؟»

«لا شيء يا حبيبي. كنت فقط تمثل ذاتك. وبإمكانك أن تتمسك للغاية بما تريده، وأظنك تريد برايان، إذا لم أكن مخطئة.»

«وهل يدهشك هذا؟»

«إنه لا يدهشني طبعاً. ولكن عليك أن تتذكر يا لوك، أن بريتاني كانت تحمل مسؤولية إبنها ومسؤوليتها الخاصة في الحياة منذ سنوات كثيرة. وقد أنشأت برايان بشكل رائع من دون مساعدتك. ورغبتك المفاجئة في أن تكون فرداً مهماً في الأسرة، حسناً...»

تملك لوك الحنق: «أتريدين القول إنني أسيطر عليها لتنفيذ ما أريد؟»

«كلا، طبعاً... حسناً، أظنني قصدت ذلك.»

«شكراً.»

منحته ابتسامة يتذكرها منذ طفولته: «يا حبيبي، إنني فقط أريد أن أريك هذا الوضع من وجهة نظر بريتاني. وكنت أظنك قد تفهمت هذا الوضع الآن ولكنني لا أراك فعلت. وأنا أخشى من أنك إذا لم تفعل، فسنفقد أعز شخصين علينا هذه المرة.»

أراد لوك أن يناقشها في ذلك. ولكنه عندما حاول أن يفكر في ما يقوله دفاعاً عن نفسه، خانته الكلمات. أتراه كان غافلاً إلى هذا الحد عن مشاعر بريتاني؟ أتراها تشعر بالضغط عليها من طريقته في الاصرار؟ وهل هم يحتملون فقد برايان بسببه؟

قال لوالدته: «إذن، فرأيك أن عليّ أن أتراجع؟»

أجابت برقة: «لبعض الوقت. إلى أن ينتهي كل هذا وتعود هي إلى حياتها العادية. أريد أن أقول إنها أعطت كل ما تملكه أثناء السنوات الست الماضية ربما إلى حد لم تعد معها تفكر في هويتها الخاصة وما تريده من الحياة.»

عادت إلى ذاكرة لوك ذلك الحديث الذي كان دار بينه وبين بريتاني مرة عن مدينة ديزني وتاهيتي. كان كل شيء تبعاً لرغبة برايان. لقد أشعرته عدم آنانيتها تلك بالخجل من نفسه. ذلك أن الحياة لم تطلب منه قط أن يؤثر غيره على نفسه. فحيث أنه كان يعلم بالضبط أين يذهب وكيف يكون، جعل نفسه أعمى عن مشاكل الآخرين دون إدراك منه لذلك. إذا لم تشأ بريتاني إعادة العلاقة الزوجية بينهما، فالافضل له إذن أن يتراجع. إنه سيبقى والد برايان وشريكاً

له في الحياة، ولكن عليه أن يسمح لبريتاني بأن تأخذ منه الطلاق لتبدأ حياة جديدة مع شخص آخر.»

لكن، لم يكن هذا ما يريده... فكر في هذا وهو يفرك حاجبه فإذا هو منح بريتاني ما تريده، يعني أنه لن ينال ما يريده هو، ذلك أنه لن يتمكن بعد ذلك من البقاء قريباً منها ومن برايان.

أرجع برأسه إلى الخلف قائلاً: «إن لدي صداعاً.»

فأجابت والدته: «هذا طبيعي وهو يحدث عندما يكون على الانسان أن يفكر في مواضيع من وجهات نظر متعددة.»

فضحك: «أخبريني أيتها السيدة، من أين حصلت على الدكتوراه في علم النفس؟»

فأجابت ضاحكة: «من خلال تربيتي لك. فقد علمني هذا كل ما أنا بحاجة لمعرفته عن الديبلوماسية.»

ففتح لوك عيناً واحدة وضحك: «وقبل ذلك، علم النفس. إنني مسرور إذ أفدتك في تثقيف نفسك.»

قالت باسمة: «لا تدعي الذكاء. فأنت كوالدك تماماً. تظن نفسك تعلم كل شيء بينما ليس لديك مفتاح اللغز.»

فقال بصراحة: «أخبريني إذن ما عليّ أن أفعله. علميني كيف تشتغل عقول النساء.»

«وأكشف لك عن سر المهنة؟ كلا يا عزيزي. لا أظنني سأفعل.» ورقت ابتسامتها: «اتبع ما توحي لك به غريزتك. تصرف ببطء. فإن مجرد معرفتك بما تريده لا يعني أن بريتاني مستعدة لسماعه حالياً.»

ساور لوك شعور بأن والدته تعلم عما يجري أكثر مما

تعترف به. ثم حولت انتباهها إلى برايان وأخذ يستمع إلى مهمتها وهي تحدو له كما كانت تفعل له عندما كان طفلاً.

لقد كان عاش حياة سعيدة، فشكراً للمرأة الجالسة بجانبه. فقد كانت أكثر ذكاء من والده من نواح عديدة، فقد كان هذا ذا ذهن عملي، لكنه يفتقد غالباً نقاطاً بالغة الدقة من علم النفس. ولأن لوك كان يقدر حكم والدته بالنسبة للطبيعة البشرية، فقد كان يتبع دوماً نصائح عند معاملته للناس. ودفعه هذا إلى التفكير في أن هذا إذا كان قد نفعه في الماضي فسينفعه في المستقبل بطبيعة الحال.

فقال لها: «لا بأس، يا دكتورة ماك كول.» وإذ رآها تبتسم تابع يقول: «سنتصرف تبعاً لرأيك. ولكن حذار من أن تخطئي وإلا فستدفعين ثمناً غالياً.»

وازدادت ابتسامة فيرا ماك كول اتساعاً.

الفصل العاشر

حدّق برايان في عيني والده وقطب جبينه قائلاً: «هل سيتغير شكلي عندما أصبح في السابعة؟»

فرد عليه لوك بنفس التقطيب وهو يجلسه على الأريكة في شقة بريتاني: «ربما ستكون أكثر نضجاً.» ثم خلع حذائي برايان وقفازيه وبعد ذلك معطفه ليجعله مرتاحاً قدر الامكان، ثم غطاه جيداً بدثار، وهو يتابع قائلاً: «وطبعاً، جارتك سوزي ستلاحظ التغيير ذاك وستبدأ بملاحقتك بشكل حقيقي.»

فقالت بريتاني مؤنبة: «لوك!» ثم قالت تخاطب برايان: «لا تستمع إليه. فهو يتكلم كثيراً والآن، هل تريدني أن أصنع لك شيئاً؟»

«أريد كعكاً.»

«حسناً، كعكة واحدة.»

«ومجلاتي الهزلية.»

«حسناً، لا بأس.»

«وشيئاً من العصير.»

فابتسمت والدته تغيظه: «اسمع، لا تظن أن بإمكانك أن تحصل على ما تريد لمجرد أن هذا يومك الأول خارج المستشفى.»

قال لوك: «سأحضر المجلات الهزلية.»

فأومأت هي: «وأنا سأحضر الطعام.»

ضحك برايان وغاص في الأريكة. وبعد لحظة عادت بريتاني وكان لوك ما يزال في غرفة برايان.

قالت له وهي تدفع المنضدة إلى جانب الأريكة لكي يضع برايان عليها العصير، قالت باسمة: «هاك، استمتع.»

فرشف برايان من العصير، ثم أخذ يحدّق في كوبه.

سألته بريتاني: «ماذا؟ ألم يعجبك؟»

فتردد قليلاً، ثم قال ببطء: «ماما، هل تحبين والدي؟»

حملقت بريتاني به. من أين خطر له هذا؟ وقالت متلعثمة: «آه، حسناً كلنا نحبه.»

«هل ستعودان زوجين وتعيشان معاً؟»

فقالت بهدوء: «كلا.»

«ولكنك تحبينه.»

تنفست بريتاني بعمق وأخذت تفكر كيف ستجيب عن هذا السؤال المعقد: «نعم، أنا أحبه، ولكن هنالك أشكال مختلفة من الحب، هناك...»

«أعلم ذلك، لقد سبق لوالدي أن أخبرني عنه.»

«عمّ أخبرك والدك؟»

«عن الحب، وعن النوع الذي يكون بين الآباء والأمهات.»

«ماذا قال لك بالضبط؟» سألته ذلك وهي ترهف أذنيها نحو الردهة حيث كان لوك.

«قال إن الآباء والأمهات لديهم نوع خاص من الحب لكي ينجبوا أطفالاً.» وهز كتفيه.

«إذن، بما أنكما انجبتماني...»

تملكت الرقة قلب بريتاني. وتذكرت الحب الذي جعلها تنجب برايان، ذلك الحب الذي كان من القوة بحيث لم يضعف

أو يتلاشى طوال السنوات التي فرقت بينهما. تجمعت الدموع في عينيها. وقالت برقة: «حسناً، لإنجاب الطفل ينبغي أن يكون هناك نوع معيّن من الحب، ولكن دون أن يعني هذا أن الوالدين يجب أن يعيشان معاً، إنك تعلم ذلك.»

فقال وهو ينظر إلى كعكته مفكراً: «نعم، ولكن...»

دخل لوك هذه الأثناء يسأله: «هل هذه هي المجلات التي تريدها؟»

فقفزت بريتاني مجفلة، ثم ضحكت تخفي ارتباكها: «عليك أن تنبه الآخرين قبل أن تتسلل بهذا الشكل.»

نظر من فوق كتفه، ثم عاد ينظر إليهما. وسألها: «أتسمين القدوم من الردهة، تسللاً؟» تابع وهو يناول برايان مجلاته: «ماذا كان يحدث هنا، على كل حال؟»

فقالت بشيء من السرعة: «لا شيء.» ونهضت لتغير الموضوع: «هل يريد أحد منكما حساء؟»

أخذ لوك ينظر إليها وهي تغادر الغرفة راغباً في أن يعلم الحديث الذي كان يدور بين الأم والابن. نظر إلى برايان وأخذ يفكر في أن يسأله عن ذلك، ولكنه عاد فتراجع عن ذلك مفضلاً أن يرغم بريتاني على إخباره.

لحق بها إلى المطبخ قائلاً وهو يجلس بجانب المنضدة: «ما الذي كنتما تتحدثان عنه هناك؟»

«لا شيء طبعاً، هل تحب الخضرة مع لحم البقر؟»

فضحك قائلاً: «لا بأس.» سكت برهة ثم قرر أن يغير الموضوع: «كنت أتحدث إلى والدتي هذا الصباح. وكان لها هذا الرأي.»

«وما هو؟»

«إنها تريدك أن تنتقلي إلى بيتنا أثناء فترة نقاهة برايان.»

سكت منتظراً جوابها، وعندما ساد صمت مطبق عاد يقول: «هل سمعتني؟»

فاستدارت إليه واتكأت على المنضدة: «لماذا تريدني أن أنتقل مع برايان إلى منزلكم؟»

فقال: «لتكونا قريبين منا طبعاً، إنها مستعدة لاتخاذ ممرضة للعناية به و...»

فقالت بحدة: «يمكنني القيام بذلك بنفسي.»

تذكر وصية أمه له، فقال بحذر: «أعلم أن بإمكانك ذلك، ولكن لا حاجة بك لأن تتحملي مسؤوليته أربع وعشرين ساعة بينما بإمكاننا استئجار ممرضة.»

جففت يديها ثم سألته: «متى تريدنا والدتك أن ننتقل إلى منزلكم؟»

«اليوم، إذا شئت.»

دفعت بريتاني بكتفيها إلى الخلف وقد بدا عليها أنها أخذت تشعر بنفسها سجينة مرة أخرى.

فسارع يقول قبل أن ترفض نهائياً: «إن لك الخيار طبعاً، فهي مجرد فكرة من والدتي التي رأتها جيدة لأجل ذكرى مولد برايان يوم الأحد.»

وخفض صوته: «إنها تستحق أن يكون قريباً منها، ألا تظنين ذلك؟»

أخذت بريتاني تنظر في أنحاء المطبخ وهي تبلل شفتها بلسانها: «أظن ذلك.»

«فكري في ذلك وأخبريني.»

فتنفست بعمق: «ليس ثمة ضرورة للتفكير سنذهب إلى منزلكم.» وأضافت بسرعة: «مؤقتاً.»

ابتسم لوك وسار إليها يضع يده على كتفها قائلاً: «هذا يعني الكثير بالنسبة إليها وإلى والدي، وإليّ أنا أيضاً.»

فابتسمت له مترددة وكأنها غير مقتنعة بأن موافقتها كانت صواباً.

سألها وهو ينهض: «هل يمكنني أن أخبر برايان؟»

«بالتأكيد.» وعندما خرج أخذت تتمتم: «من المقلاة إلى النار.»

• • •

ألصقت بريتاني انشوطة زرقاء على هدية برايان، ثم عادت تتكىء على السرير المزدوج، لقد كان انتقالها إلى منزل آل ماك كول منذ يومين هو أفضل قرار اتخذته في حياتها. فقد أدهش برايان ممرضته بحيويته وسرعته الفائقة إلى الشفاء، هذا بينما كانت بريتاني تقوم بطرد أشباح الماضي الشريرة. فقد كان المنزل والناس الذين يسكنون فيه، مجرد منزل وناس... لقد اختفى العذاب الذي كانت تشعر به في الماضي حين كانت ما تزال مع لوك وتزورهم أحياناً، ليحل مكانه شعور لطيف بالانتماء إليهم، في الواقع شعرت بأنها في بيتها حقاً إلى درجة كان عليها فيها أن تذكر نفسها بأن هذا وضع مؤقت ليس إلا.

أخذت تفكر في قرارها بالانتقال إلى كالغاري. لم تكن أخبرت أحداً بذلك سواء لوك أو برايان. ذلك أنها رأت أن لوك ووالديه يستحقان أن يشاركا برايان حياته، وستكون أنانية منها أن تفكر ولو لحظة واحدة، بإعادته إلى فانكوفر.

أدركت أن الخوف كان يغلف تفكيرها. قد تكون السلطة حسنة، ولكنها كانت تملك السلطة لسنوات عديدة وقد حان الوقت الآن لكي تشاركهم مهمة تربية برايان، لقد كانت أثبتت جدارتها في ذلك، وهي الآن ليست بحاجة إلى الاستمرار في اثبات تلك الجدارة. وقد أثبت لوك أنه موضع ثقة بالنسبة إلى قيامه بأفضل ما يمكن لبرايان.

ضحكت حين تذكرت قراره بالنسبة لهدية برايان. لقد بقي أياماً يفكر في فكرة صائبة لذلك وقطبت جبينها وهي تتذكر ابتسامته الماكرة عندما استقر رأيه أخيراً على شيء ما، لم تستطع أن تجعله يخبرها به. وأدركت أنه لا بد شيء كان يخاف أن لا يعجبها.

وتعالى طرق على الباب.

«ادخل.»

فدخل لوك مغلقاً الباب خلفه: «هل أنت مشغولة؟»

«كلا، فقط كنت أغلف هدية برايان، لقد اشتريت له لعبة حصان أخرى. وهي حمراء هذه المرة.»

«آه.»

ولاحظت التحفظ في صوته، فسألته: «آه، ماذا؟»

«لا شيء.»

لكنها لم تقتنع: «ما الذي اشتريته له؟»

«اشتريت شيئاً يناسب ما اشتراه له والدي ووالدتي.»

«حسناً، وما الذي اشترياه له؟ أخبرني يا لوك.»

فقال: «تعالي وانظري.»

تبعته إلى النافذة حيث نظرت منها إلى الخارج: «آه، لوك... إنه حصان.»

فقال: «إنه حصان صغير. وقد اشتريت أنا السرج.»

فغاص قلب بريتاني، كيف بإمكانها أن تنافس هؤلاء الناس؟ فهي أم بمفردها، وعلى وشك فقدان وظيفتها إذا هي بقيت بعيدة عنها أكثر من ذلك. وعليها أن تستعمل دوماً الاقتصاد في نفقاتها، فكيف بإمكانها أن تجاري أناساً مثل آل ماك كول؟

تأوهت في داخلها وهي تدرك أن ذلك لن يكون في إمكانها أبداً. لقد أمضت حياتها تعنف نفسها لأشياء لم تكن تملكها ولا تستطيع شراءها، وقد حان الوقت للخلاص من ذلك. فآل ماك كول أناس محبون حتى ولو لم يكن لديهم مالاً. كما أنها ستكون نفس الأم المحبة لو كانت تملك مالاً.

فالمحبة هي التي تسود المكان هنا.

وألقت على الحصان نظرة أخرى ثم التفتت إلى لوك: «إنكم مجانين، كلكم.»

فقال بابتسامة عريضة: «آه، حسناً قد يظن البعض هذا.»

«أين برايان، على كل حال؟»

«في انتظارنا في الطابق الأسفل.» وأمسك بيدها يجرها إلى الباب: «هيا بنا، فهو يكاد يموت من الفضول، فقد كان أبي أخبره أنه اشترى له هدية كبيرة.»

فحملت بريتاني هديتها، والتي كانت صورة كئيبة عن الحقيقة، ثم تبعت لوك إلى غرفة الاستقبال حيث كانت مائدة كبيرة وُضع عليها اكواب العصير وقالب حلوى بشكل زورق ويكفي لإطعام عشرة أشخاص.

كان برايان جالساً على الأريكة بين جده وجدته، وهتف الجد: «أين كنت يا بريتاني؟»

قالت الجدة معاتبة: «ليس أمام الطفل، يا فنسنت.»

فقال وهو ينظر إلى برايان: «آسف، ولكننا كنا في انتظارك، إذ لدينا مفاجأة كبيرة، أليس كذلك؟»

أشرق وجه برايان بالابتسام وهو يومىء بحماسة.

فقالت الجدة مشيرة إلى لوك لكي يشعل السبع شمعات على قالب الحلوى، قالت: «ولكن عليه أن يطفىء الشموع أولاً.»

أضافت بريتاني: «وعليك أيضاً أن تتمنى شيئاً.»

تقدم برايان إلى جانبها وأخذ ينتظر أن يغنوا له عيد سعيد، قبل أن يسحب نفساً عميقاً ثم ينفخ على الشموع بقوة كاد معها أن ينكفىء إلى الأمام.

قال لوك وهو يصفق مع الآخرين: «لا بأس، ما هي أمنيتك الآن؟»

فقالت بريتاني: «إنه لا يمكنه أن يخبركم بها، لأنها ينبغي أن تكون سرية.»

قال برايان بهدوء: «بل يمكنني ذلك.» وجعلت لهجته الآخرين يلتفتون إليه. نظر هو إلى بريتاني ثم إلى لوك: «أريدك أنت ووالدتي أن تعودا زوجين لنعيش جميعاً معاً.»

ساد الغرفة صمت ثقيل، وأخذت بريتاني تبحث في ذهنها عن شيء تقوله، ولكن الكلمات خانتها. وتحولت نظراتها إلى لوك، ولكنه كان مذهولاً مثلها وقد بدت الدهشة على وجهه.

وأخيراً قال: «حسناً، ليس الأمر بهذه السهولة، يا صغيري. يجب أن يكون بيننا حب، قبل ذلك.»

«إن والدتي تحبك. لقد أخبرتني هي نفسها بذلك.»

كبتت بريتاني شهقة وشعرت بتوهج في وجهها وعنقها. لم تستطع أن تنظر إلى أي ناحية ما عدا قالب الحلوى.

فقال لوك متلعثماً: «حسناً، وأنا أحب والدتك أيضاً، ولكن هذا ليس كافياً.»

فجمدت نظرات بريتاني. وكأنه لم يكن كافياً أن تسمع هذا، حتى يكون ذلك أمام الجميع وأحست بضيق فيرا، وشعرت بالأسف لأجل والدي لوك، اللذين تعرضا لنفس الحرج.

اندفع برايان يقول: «إذن فالسبب هو أنا، أليس كذلك؟»

رفعت بريتاني عينيها إذ سمعت ذلك ونظرت إلى برايان باهتمام.

فتابع هو يقول وقد سالت من عينه دمعة على وجنته وهو ينظر إلى والده: «ذلك لأنني مريض، أليس كذلك؟» كانت ملامحه يكسوها ألم هادىء، ولكن بريتاني كانت تعلم أن قلبه يتحطم وهو يتابع مخاطباً والده: «إنك لا تريدني لأنني دوماً مريض.»

أجاب لوك وهو يقفز من مقعده ويتقدم إلى برايان ويجثو على الأرض بجانبه، أجاب قائلاً بحزم: «كلا، كلا. إنني أحبك مريضاً أم غير مريض. وعلى الدوام فتذكر ذلك.» ونطق الجملة الأخيرة برقة بالغة.

ألقى برايان بنفسه بين ذراعيه والده، فدفن هذا وجهه في عنق ابنه وهو يربّت على ظهره، قائلاً: «إياك أن تقول كلاماً كهذا بعد الآن، يا صغيري.»

أومأ برايان برأسه، وقال وهو يجهش بالبكاء: «هل معنى هذا أننا لن نصبح أسرة أبداً؟»

فحدق لوك في عيني ابنه، وتمنى لو يقول نعم. ولكن بريتاني قد أوضحت له بأنها لا تريد أن يكونوا أسرة، أبداً.

ولكن، هل فعلت هي ذلك حقاً؟ ما الذي قاله برايان منذ لحظات؟ أليس أنه يعلم أن بريتاني تحبه وأنها أخبرته بذلك بنفسها؟ وقطب جبينه. إنه يذكر الآن أنها لم تقل، في الواقع، انها لا تريد أن تكوّن أسرة. كما أنها لم ترفض، في الحقيقة، اقتراحه بأن ينجبا مزيداً من الأطفال.

نظر إليها الآن وهو يتساءل عما إذا كان قد سمع جيداً كل ما كانت تقوله. وابتدأ يقول: «آه، آه اسمع...»

فقال فنسنت: «حسناً، أنا لا أعرف شيئاً عنكم، ولكنني أظن أن الوقت قد حان لكي أري حفيدي هديته. أليس كذلك يا فيرا؟»

اجابت فيرا: «أظنك على صواب.» نهض الاثنان ومدّ الجد يده إلى حفيده: «هيا بنا، إنك ستعشق هديتك.»

قال برايان وهو ينزلق من بين ذراعي والده: «نعم، هل أنت قادم معنا يا أبي؟»

فقال لوك برفق: «كلا، إن عليّ أن أتحدث إلى والدتك. اذهب أنت وسأتبعك بعد قليل.»

وضعت الجدة ذراعها حول كتفي حفيدها، ثم غادر الثلاثة الغرفة، تاركين الصمت يخيم على الغرفة التي بقي فيها لوك وبريتاني.

جلس لوك على الأريكة وأخذ يحدّق إلى ظهر بريتاني التي كانت جلست على الأرض، تاركاً لها الخطوة الأولى. وأخيراً نهضت وسارت إلى الكرسي الهزاز.

قال لوك لها قبل أن تجلس: «كلا، تعالي اجلسي بجانبي، أرجوك.»

فترددت، ثم امتثلت لما طلبه منها وجلست على الطرف الآخر من الأريكة، ثم قالت بسرعة: «لوك، هنالك شيء لم أقله قبل الآن، وكنت سأخبر به كل شخص عندما نبدأ بأكل الحلوى، وسأقوله لك الآن، وهو أنني قررت الانتقال إلى كالغاري.»

أشرق وجهه بابتسامة عريضة: «بريتاني، هذا رائع شكراً لك.» كانت هذه نقطة تحوّل وكان يعلم أنه قرار صعب استغرق منها اتخاذه أسابيع طويلة. لقد حاول هو أن لا يلحّ عليها بذلك، ولكن كان من الصعب أن يلتزم الصمت بينما كان يتلهف إلى أن تنتقل أسرته إلى كالغاري. وتابع يقول: «سيبتهج برايان بذلك.»

فأومأت تجيب ببساطة: «إن العودة ستكون شيئاً جميلاً، فقد تحسنت صحة برايان منذ مجيئنا إلى هنا، وقد أخطأت في إبعاده من هنا مرة، وقد تعبت الآن من ارتكاب الأخطاء. من الآن فصاعداً أريد أن أقوم بالأعمال الصائبة.»

فاقترب لوك منها قليلاً، وسرّه أنها لم تبتعد عنه، وسألها: «أين ستسكنين؟»

فهزت كتفيها: «لم أفكر في ذلك بعد.»

«ماذا عن عدة فدادين من الأرض في براغ كريغ؟ إن برايان يحتاج مكاناً لحصانه.»

«آه، لقد نسيت هذا الأمر. كيف ستتمكن من شراء هذا له؟»

فابتسم قائلاً: «إنها فكرة والدي، في الحقيقة.»

«وهل قستما، أنتما الاثنين حرارة الماء قبل أن تقفزا لشراء ذلك؟»

فقال ضاحكاً: «كلا، بالطبع لقد قررنا شراء مكان للحصان، ثم باشرنا بذلك في نفس اليوم.»

هزت بريتاني رأسها: «أرى أن العيش هنا سيكون مختلفاً تماماً عما اعتدناه.»

«وماذا بالنسبة لجليسته السيدة كاي؟»

فالتفتت إليه قائلة: «لقد كنت دعوتها لتنتقل معنا إلى هنا، ولكنها تحب المناطق البحرية. ولا يدهشني إذا هي قررت البقاء هناك، رغم أنني تركت لها الدعوة للعودة مفتوحة.»

ازداد لوك اقتراباً منها: «إنك لم تخبريني عن قرارك بشأن قطعة الأرض في براغ كريغ بعد.»

«لا أظنها فكرة حسنة، يا لوك.»

فسألها: «ولماذا لا؟»

«حسناً، إنني... إن ذلك...» وتأوهت بقنوط، لماذا يجعل لوك الأمر صعباً إلى هذا الحد؟ إن العيش معه يعني عودة علاقاتهما الزوجية، وهي ليست مستعدة لذلك لكي تجعل برايان سعيداً... خصوصاً وأنه لم يطلب منها ذلك. ولم تعرف ما تقول، وأخيراً قالت بصراحة: «لا أريد أن أعيش معك.»

وشعرت بضيق بالغ، لم يكن كلامها هذا حسناً على الإطلاق، وقد أدركت ذلك من التعبير الذي بدا على ملامح لوك، وفكرت في أنه يستحق ذلك لإلحاحه في طلب الأجوبة.

وقال مفكراً: «فهمت، وماذا لو حاولت أنا إصلاح الأمور؟» ثم أخذ يعبث بخصلة من شعرها.

فنظرت إليه متذمرة: «وكيف؟»

«كنت أفكر في أن نضيف ورقة أخرى إلى ذلك الملف الذي وضعته عني.»

فاحمر وجه بريتاني. إنه يتكلم عن ملف رجل المباحث الخاص، وقد كانت هي نسيته. ويا ليت لوك ليس له تلك الذاكرة القوية.

قالت وهي تنظر بعيداً: «إنها ضربة لي.»

فأدار وجهها إليه وقال: «كلا، بل هو عرض لا يمكنك رفضه.»

مال نحوها ما جعل قلبها يخفق بعنف. تباً لذلك... إنها تتمنى لو تستطيع مقاومة جاذبيته القوية.

وقالت بحزم: «ليس هناك عرض لا يمكنني رفضه.»

«ماذا بالنسبة إلى إعادة تكوين أسرتنا بشكل طبيعي مضيفة ذلك إلى مجموعتك في الملف؟»

فترددت، وكرهت نفسها لمجرد التفكير في العودة إليه دون حب من جانبه، ثم هزت رأسها: «كلا.»

فسألها بصوت هادىء أثار أعصابها: «لماذا لا، يا بيتي؟ لقد سبق وأثبتنا أننا منسجمين مع بعضنا البعض.»

فقالت متلعثمة: «إن... الانسجام... ليس كل شيء.»

«ماذا هناك غير ذلك؟»

«حسناً، هناك... ماذا كان السؤال؟»

«لماذا لا تريدين العودة إليّ، يا بريتاني؟»

«آه، حسناً لأنك بحاجة إلى الحب لإنجاح الزواج.»

«لقد تأكدت من أوثق المصادر من أنك تحبينني.»

فاتجه تفكير بريتاني إلى برايان متسائلة عما جرى له،

ثم عادت فاطمأنت إلى أنه بين أيدي محبين... مثلها هي وقالت: «ولكن تبقى هناك الثقة، أيضاً.»

فقال ببساطة: «إنك تثقين بي، وإلا لما انتقلت إلى كالغاري.»

تباً لعقله المدقق الذي لا ينسى. وقالت: «نعم، إنني سأنتقل إلى كالغاري. كلا، إننا لسنا بحاجة إلى طفل آخر لأجل صحة برايان. نعم، سأدعك ترى برايان كلما شئت.» وبدا في صوتها القنوط وهي تتابع: «ترى انك ستحصل على كل ما تريده. فاعطني سبباً وجيهاً يجعلك تريد عودة علاقتنا الزوجية.»

«السبب هو أنني أحبك.»

أجفلت بريتاني: «أرجو المعذرة؟»

«إنني أحبك، ما الذي لا تفهميه في ذلك؟»

فلم تبادله الابتسام. أية لعبة يقوم بها لوك؟ وقالت: «لا أصدقك.»

فهز كتفيه: «أعرف ما تعنين. وأنا نفسي لا أكاد أصدقه، ولكنه الحقيقة.»

فسألته: «منذ متى؟»

حدّق إلى وجه هو من الجمال بحيث جعله يدرك بأنه أسره إلى الأبد، وقال بهدوء وصوته ينطق بالصدق: «لا أدري. ربما منذ وافقت على الانتقال إلى كالغاري. ربما منذ علمت أنك عانيت من الأذى الجسدي من والدك لكي تحميني وربما منذ أول يوم قابلتك فيه.»

فشعرت بريتاني بأنها على وشك البكاء، وقالت: «لوك، لا تمزح فأنا لا أستطيع احتمال ذلك.»

«انني لا أمزح أبداً في مواضيع كهذه، يا بيتي. إنني أحبك وأنا أثق بك وأريد أن أمضي بقية حياتي معك، حتى أكثر مما كنت في البداية.»

فعضت بيتي شفتها، هل يمكن أن يحدث هذا حقاً؟ ليس فقط أن برايان أصبح على طريق الشفاء، ولكن لوك... لوك يحبها؟

سألها: «أخبريني بحقيقة مشاعرك.»

هل تخبره بالحقيقة أم...

«لقد أحببتك على الدوام، أحببتك كل يوم منذ عرفتك... ولم أكفّ أبداً عن حبك.»

فابتسم لها بحرارة: «ليس طوال تلك السنوات؟»

«ولا مرة واحدة.»

«ألم تتخذي أصدقاء شبان قط؟»

فخفضت رأسها، ولكنه رفع ذقنها بإصبعه وهو يقول لها: «لا تخفي عني شيئاً، يا بريتاني لم يعد لديك شيء تخفينه.»

فترددت، ثم قالت معترفة: «لم يكن لديّ أصدقاء شبان.»

«ولا واحد؟»

فهزت رأسها وهي تنظر في عينيه، إذا كان يضحك عليها فستكره نفسها لصدقها، ولو أنها كانت تعلم أن الصدق هو المفتاح الذي يدفع هذه العلاقة إلى النجاح. وشعرت بالارتياح وهي ترى السرور يكسو وجه لوك لاعترافها هذا.

وهمس يقول: «هذا يعجبني دوماً كنت أتمنى أن تكوني لي وحدي.»

ولأول مرة في حياتها، شعرت بريتاني أنها، وهي بجانبه، في مكانها الطبيعي وقالت له: «لا أستطيع أن أكون لك وحدك، فإن لديّ برايان أيضاً.»

«وسيكون لديك أيضاً كل أطفالنا الآخرين. ويمكننا أن نتحدث عن ذلك أثناء شهر عسلنا الجديد في تاهيتي. ولكن حتى ولو أصبح لدينا عشرة أطفال آخرون، فدوماً سيكون هناك جزء منك سيكون لي وحدي.»

فأغمضت بريتاني عينيها وتاهت في دنيا الأحلام. ثم همست تقول: «قلبي، إن قلبي سيكون ملكك على الدوام.»

تمت

www.elromancia.com